
كتابى
الجزء الأول
البؤساء
فيكتور هيجو
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ماهي مراد



البؤساء

فيكتـور هيجـو

« ما بقيت هناك بفعل القوانين والعرف لعنة اجتماعية تخلق وسط المدينة الوانا من الجحيم ، وتعقد بالمحن البشرية المشيئة الإلهية . وما ظلت — بدون حل — مشـكلات العصر الثلاث : وهى امتهان الإنسان بوضع الطبقة العاملة المجحف ، وسقوط المرأة بفعل الجوع ، وهزال الطفل بفعل الظلمة .. وما برحت عمليات الاختناق الاجتماعى ممكنة فى بعض المناطق .. وبعبارة أخرى ، وبنظرة اشمل : ما ظلت على وجه الأرض ظلمات الجهل والبؤس ، فلن تكون الكتب على شاكلة هـذا الكتب بغير طائل ! » .

فيكتور هيجو

هوتفيل هاوس
١٨٦٢

القسم الأول

فانتين FANTINE

الكتاب الأول

رجل صالح

- ١ -

مسيو ميرييل MYRIEL

فى سنة ١٨١٥ ، كان مسيو « شارل فرانسوا بينفينى ميرييل » يشغل منصب اسقف بلدة (د) ، وهو يومئذ شيخ فى نحو الخامسة والسبعين من عمره ، وقد شغل كرسى (د) منذ سنة ١٨٠٦ .

ومع ان هذا التفصيل لا يمس على اى نحو من الانحاء صميم ما نحن بسبيل سرده ، إلا انه قد لا يكون خلوا من الفائدة ـ على الأقل تحريا للدقة فى كل شىء ـ ان نشيرها هنا إلى الشائعات والاحاديث التى ترامت حول الأسقف عندما وصل إلى هذه الأبروشية . وسواء صحاو لم يصح ما يقال عن الناس ، فإنه يحتل فى حياتهم ، وفى مصائرهم على الأخص ، مثل مكانة ما يصدر عنهم من أفعال . والمسيو ميرييل كان نجل مستشار فى برلمان (ايكس) ، فهو من نبلاء « الرداء » فى العهد الملكى . والمعروف ان أباه كان يعده لكى يرث منصبه ، لذا زوجه فى سن مبكرة ــ وهو فى الثامنة عشرة او العشرين ــ جريا على العادة المتفشية فى العائلات البرلمانية يومئذ . ويقال إن شارل ميرييل برغم زواجه المبكر اثار حوله كثيرا من الاقاويل . وكان وسيم الشكل ، وإن كان قصير القامة ، أنيقا ، رشيقا ، حاضر النكتة . وقد خصص الجانب الأول من حياته للمجتمع والمغازلات . ثم نشبت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعا ، واستمر القتل فى النبلاء والأسر البرلمانية ، او طردوا

وطوردوا وتشتتوا . وهاجر مسيو شارل ميرييل منذ الأيام الأولى للثورة إلى إيطاليا ، وهناك ماتت زوجته بذات الصدر ، وكانتتشكو من هذه العلة منذ أمد طويل . ولم يكن لهما أولاد . فماذا حدث بعد هذا لمسيو ميرييل؟ يبدو أن انهيار المجتمع القديم فى فرنسا ، وسقوط أسرته ، والأحداث الرهيبة التى جرت فى سنة ١٧٩٣ ــ التى لعل السماع بها عن بعد زادها هولا ورهبة ــ ولد فى نفسه فكرة التخلى عن الدنيا وطلب العزلة . أم هل اصابته وسط هذا البحر المائج من المحن طعنة نافذة فى القلب ، أدهى من النكبات العامة التى حاقت بمجتمعه وأسرته ؟ لا سبيل إلى القطع بشىء من هذا ، فكل ما ندريه انه عندما عاد من إيطاليا كان قد صار قسا .

وفى سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميرييل يشغل منصب خورى (قسيس) بلدة برينول (BRIGNOLLES) . وكان قد تقدم فى السن ، وصار يعيش فى عزلة تامة .

وقرابة وقت تتويج نابليون إمبراطورا ، اضطر للذهاب إلى باريس بسبب مسألة تتعلق بأبروشيته ، وإن كنا لا ندرى طبيعة هذه المسألة بالضبط . وذهب بطبيعة الحال يلتمس معونة كبار من بيدهم مثل هذا الأمر ، ومن بينهم الكردينال «فيشى» خال الإمبراطور نابليون، وذات يوم ذهب الإمبراطور لزيارة خاله الكردينال ، وكان هذا الخورى الريفى الوقور جالسا بقاعة الانتظار عند دخول الإمبراطور ، فراح القسيس الشيخ يحدق فى نابليون بفضول لاحظه الإمبراطور ، فالتفت إلى خاله الكردينال فجاة وساله بدهشة : « من هذا الرجل الطيب الذى يرمقنى هكذا ؟ » .

فقال مسيو ميرييل : « مولاى ! انت ترى امامك رجلا طيبا كما تقول . وانا ارى امامى رجلا عظيما فكيف لا انظـر إليه ؟ كل منا فى وسعه ان يجد فيما يراه فائدة » .

وفى ذلك المساء نفسه سأل الإمبراطور الكردينـال عن اسم هذا الخورى . وبعد فترة وجيزة ادهش مسيو ميرييل ان يسمع بانه عين اسقفا لأبروشية (د) .

وما مدى صدق ما رددته الألسنة عن الجانب الأول من حياة مسيو ميرييل ؟ لا احد يدرى . فما اقل الأسر التى كانت تعرف آل ميرييل قبل الثورة .

وكان لا بد للمسيو ميرييل ان يقاسى المقسوم لكل قادم جديد فى مدينة صغيرة بها كثرة من الأفواه التى تنطلق بالكلام ، وقلة نادرة من الرءوس التى تفكر ! كان لا بـد له من معاناة هذا المصير ، برغم انه الأسقف ، بل ولانه الأسـقف ! ولكن الأراجيف التى قرنوها باسـمه لم تكن إلا اراجيف ، وثرثرة كلام وصـخب اقاويل ... محض ترهات . ومهما يكن من شىء ، فبعد تسع سنين من شغله كرسى الأسـقفية وإقامته فى (د) طوى النسيان كل هـذه الاحـاديث التى يلغط بهـا صغار الناس حول كل قادم جديد فى المدن الصغيرة ، بل لم يعد أحد بعد هذه السنوات التسع يجسر على ان يلوكها . او يجسر على تذكرها .

وكان المسيو ميرييل قد وصل إلى مدينة (د) وفى صحبته عانس متقدمة فى السن ، هى الآنسة باتستين ، اختـه التى تصغره بعشرة سنين . وكانت تقوم على خـدمتهما خادمة فى مثل سن الآنسة باتستين اسمها « مدام مجلوار » . وهكذا ،

بعد ان كانت خادمة حضرة الخورى (القس) ، صارت الآن خادمة الآنسة وخادمة صاحب النيافة « سيدنا » الأسقف .

والآنسة باتستين طويلة القامة ، شاحبة ، نحيلة ، لطيفة ، تتمثل فيها صورة الآنسة «المحترمة»لانه فيما يبدو لا بد انتكون المراة متزوجة كى توصف بانها «سيدة جليلة» . ولم تكن فى اى وقت من الأوقات جميلة : وقد قضت كل حياتها فى سلسلة من الأعمال المقدسة والخيرية ، مما اكسـبها ضربا من البياض والإشراق ، وعندما تقدمت فى السن اكتسـبت ما يمكن ان يسمى جمال الطيبة . وما كان فى شبابها نحافة وهزالا صار فى سـنها هـذه شفافية ، تشف عن الملك الكريم فى دخيلة نفسها. فهى روح اكثر منها عذراء، وكان جسمها ظل بلا مادة، فلا يكاد يكون لها جسد يسمح بأن يكون لها جنس . إنها شبح مادة تشع ضياء ، وعيناها على الدوام مغضيتان ، كأنها مجرد ذريعة لبقاء روحها على الأرض .

اما مدام مجلوار فعجوز قصيرة ، بيضـاء ، سمينة ، مشغولة دائما ، ولاهثة دائما ، بسبب نشاطها الزائد على الدوام ، ثم بعد ذلك بسبب داء الربو .

وعندما وصل مسيو ميرييل انزلوه فى قصره ، المخصص للأسقف ، بكل التكريم الواجب للمراسيم الإمبراطورية الذى يجعل مقام الأسقف تاليا مباشرة لقائد المعسكر بالإقليم . وقام العمدة ورئيس المحكمة بالزيارة الأولى له ، وقام هو من جانبه بالزيارة الأولى للجنرال والمحافظ . وبعد ان تم استقراره فى قصر الأسقف ، انتظرت المدينة ان ترى ماذا سيصنع الأسقف الجديد ..

– ٢ –

مسيو ميرييل يصبح سيدنا « بينقينى » (ومعناها « مرحبا »)

كان قصر الأسقف فى مدينــة (د) مجاورا للمستشفى .
وقصر الأسقف مسكن فسيح جميل ، مبنى بالحجارة فى بداية القرن السابق ، بناه سيدنا الأسقف هنرى بيجيه ، الدكتور فى اللاهوت من كلية باريس ، وكان قد عين اسقفا لمدينة (د) فى سنة ١٧١٢ ، فجاء هذا القصر مسكنا يليق حقا بامير وسيد مهيب ، فكل ما فيــه يوحى بالعظمة والفخامة : من اجنحــة الأسقف ، إلى الصالونات ، إلى الحجرات ، وفنــاء الشرف الذى تحف به الماشى ذات الأعمــدة والعقود على الطراز الفلورنسى القديم ، والحدائق المغروســة فيهــا الأشــجار البديعة . وقاعة الطعام فى الطابق الأرضى رواق ضخم طويل يفضى إلى الحدائق . وكان سيدنا هنرى بيجيه قد اولم فيهــا باحتفال عظيم فى ٢٩ يوليو سنة ١٧١٤ عشاء فاخرا لنخبة من امراء الكنيسة الفرنسية واعيانها عددهم سبعة وصور هؤلاء السبعة تزين الآن جدران هذه القاعة ، واقيمت لوحة رخامية بيضاء عليها اسماؤهم بحروف من ذهب .

اما المستشفى فبيت متواضع ضيق منخفض من طابق واحد يعلو الطابق الأرضى ، له حديقة صغيرة .

وبعد وصول الأسقف بثلاثة ايام ، زار المستشفى . وفى

ختام الزيارة رجا مدير المستشفى ان يتفضل بالمجىء معه إلى قصره . وهناك قال له : « سيدى مدير المستشفى ، كم عندك الآن من المرضى » .

— ست وعشرون يا سيدنا .

فقال الأسقف : « هذا هو عددهم كما أحصيته » .

واستطرد المدير قــائلا : « والأسرة ملتصق بعضــها ببعض ، لضيق المكان » .

— هذا ما لاحظته .

— والقاعات ليست إلا حجرات ، بحيث لا يتجدد فيهــا الهواء بسهولة .

— هذا ما بدا لى .

— وعنــدما تشرق الشمس ، لا تكفى الحديقة الصغيرة لكل الناقهين .

— هذا ما قلته لنفسى .

— وفى ايام الأوبئة كان عندنا مرضى بالتيفوس وغيره ، فيصل عدد المرضى احيانا إلى مائتين ...

— هذا ما خطر لى .

— وما الحيلة يا سيدنا ؟ لا بد من الإذعان .

وكان هذا الحديث يدور فى قاعــة الطعــام فى الطابق الأرضى . ولزم الأسقف الصمت لحظة طويلة ، ثم التفت فجاة إلى مدير المستشفى وساله :

— سيدى . كم تظن هذه القاعة تسع من الأسرة ؟

فصاح المدير ماخوذا :

— قاعة طعام سيدنا ؟

وشغل الأسقف نفسه بقياس القاعة بنظرة طولا وعرضا، ثم قال كالمحدث نفسه : « تتسع لعشرين سريرا » .. ثم رفع صوته وقال : « اسمع يا سيدى مدير المستشفى . واضح ان هناك خطأ . فأنتم ستة وعشرون شخصا فى خمس حجرات او ست صغيرة . ونحن هنا ثلاثة ولدينا مكان يتسع لستين . هناك إذن خطأ . ستأخذون مسكنى وآخذ أنا مقركم . أعطنى بيتى . فها هنا بيتكم ! » .

وفى اليوم التالى كان المرضى الستة والعشرون مقيمين فى قصر الأسقف ، وكان الأسقف مقيما بالمستشفى .

ولم يكن لدى مسيو ميرييل ممتلكات ، فاسرته قضت الثورة على ممتلكاتها وأخته تتقاضى إيرادا مدى حياتها قدره خمسمائة فرنك سنويا ، كانت تكفى ، وهم فى بيت الكاهن — قبل رسامته أسقفا — لنفقاتهما الشخصية . ويتقاضى المسيو ميرييل من الدولة بوصفه أسقفا راتبا قدره خمسة عشر الف فرنك سنويا . وفى نفس اليوم الذى استقر فيه بالمستشفى قرر بصفة نهائية استخدام هذا المبلغ على الوجه التالى : كتب قائمة بجهات البر ورعاية اليتامى والأرامل والسجناء ومرضى المستشفى ليوزع عليها المبلغ كله ما عدا الف فرنك سنويا لنفقاته الشخصية . وظل طوال الفترة التى شغل فيها كرسى أسقف (د) لا يغير شيئا من هذا الترتيب ، الذى كان يسميه : تنظيم مصروفات بيته .

وتقبلت أخته الآنسة باتستين هذا التنظيم بكل إذعان تام . ففى نظرة هذه الفتاة القديسة كان مسيو ميرييل اخاها

واسقفها فى آن واحد ، وصديقها بموجب الطبيعة الجسدية ورئيسها بموجب تعاليم الكنيســـة . فكانت تحبه وتجله بكل بساطة . وعندما كان يتكلم كانت تنحنى . وعندما كان يتصرف كانت تؤيده . وكانت الخادمة وحدها — مدام مجلوار — هى التى غمغمت قليلا . وقـــد لاحظنا ان نيافة الأسقف لم يحتفظ لنفسه إلا بالف فرنك ، إذا ضمت إلى معاش الآنسة باتستين صار المجموع الفا وخمسمائة فرنك فى الســـنة . وبهذا المبلغ الهزيل كان يعيش الشيخ والمرأتان العجوزان .

وعندما كان يأتى خورى (قس) من إحدى القرى للأسقفية إلى مدينـــة (د) كان نيافة الأسقف يجـــد وسيلة لضيافته ، بفضل شدة اقتصاد وتدبير مدام مجلوار وذكاء إدارة الآنسة باتستين .

وذات يوم ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على حلوله بالمدينة ، قال الأسقف : « إنى اشعر رغم هـــذا بضيق شـــديد » .. فصاحت مدام مجلوار : « هذا ما اعتقده . فســـيدنا لم يطلب المخصصات السنوية التى تعطيها محافظة الإقليم للأســـقف لمصروفات عربته الفاخرة للتجوال فى المدينة والطواف بنواحى الأبروشية الواسعة ، وكان هذا هو المتبع ســـابقا مع جميع الأساقفة » .. فهتف الأسقف : « مرحى ! معك كل الحق يا مدام مجلوار » . وبعث بطلبه إلى المحافظ .

وبعد فترة اجتمع مجلس الإقليم ونظر فى هذه المسألة ، وقرر للأسقف مبلغا إجماليا لمصروفات كاتبه مقداره ثلاثة آلاف فرنك فى السنة تحت بند « مصروفات عربة ذات ستة جياد للأسقف مع مصروفات عربات البريد او الخيل التى يحتـــاج

إليها فى جولاته بالأبروشية » .. وقد اثار هذا القرار البورجوازية المحلية ، وانبرى على الخصوص عضو بمجلس الشيوخ الإمبراطورى ، وهو عضو سابق فى مجلس الخمسمائة الذى ايد انقلاب « ١٨ بروميز » ، وكوفىء على هذا بمنصب عضو الشيوخ عن مدينة (د) مع ضيعة مترامية فخمة ، وقدم هذا « السناتور » إلى وزير الديانات مذكرة صغيرة سرية نقتبس منها السطور الآتية :

« وفيم مصروفات العربة المطهمة ؟ وما لزومها فى مدينة سكانها اقل من اربعة آلاف ؟ ومصروفات لجولات ! ما لزوم هذه الجولات اساسا؟ ثم كيف يمكن المرور بمركبة بريد فى طرق جبلية كطرق إقليمنا ؟ انه خال من الطرق . ولا يركب الناس إلا الخيل . والجسر المقام فى بعض المناطق لا يتحمل مرور عربة تجرها الثيران . ان جميع القسوس من هذا الصنف ، كلهم بخلاء خشعون . وهذا الأسقف تظاهر بانه رسول من رسل المسيح كله طيبة عندما جاءنا ، ولكن ها هو يحذو حذو الآخرين ، ويطالب بعربة مطهمة وعربة خفيفة ومقعد فى عربة بريد . يطالب بالأبهة والفخفخة . مثل الاساقفة القدامى ! إن الحال لن ينصلح إلا إذا خلصنا الإمبراطور من هذه الطغمة كلها . فليسقط البابا ! (وكانت الأمور قد ساءت مع روما) اما انا فمع قيصر وحده ... الخ الخ » .

ولكن موافقة مجلس الإقليم على هذه الميزانية اثلجت صدر مدام مجلوار ، وقالت للآنسة باتستين: « آه . إن سيدنا بدأ برعاية الآخرين ، ولكنه حسنا فعل حين تذكر نفسه فى

النهاية ، بعد ان انتهى من كل انواع الصدقات . وها هى اخيرا ثلاثة آلاف فرنك لنا نحن ! اخيرا ! » .

وفى نفس ذلك المساء كتب الأسقف لأخته مذكرة وزع بها المورد الجديد على جهات بر اخرى ، وخص مرضى المستشفى بنصيب كبير ، ولم يبق لنفسه شيئا . وشعر هكذا ان ضيق ذات يده قد خف ! واما نثريات الكاتدرائية فاعتمد فيها على ما يحصل عليه من الأغنياء . واحس الشعب واستجاب للأسقف ، فتوالت عليه العطايا والهبات النقدية فى كل المناسبات . وكان الجميع ، من المحتاجين والموسرين على السواء ، يطرقون بابه، بعضهم يطلب الصدقة، والبعض الآخر يأتى ليودعها لديه . وفى مدى عام صار الأسقف امين خزانة جميع الخيرات، وصراف جميع الإعانات . فمرت من بين أصابعه مبالغ جزيلة ، ولكنه لم يغير شيئا من اسلوب حياته ولم يضف قط شيئا إلى ضروراته .

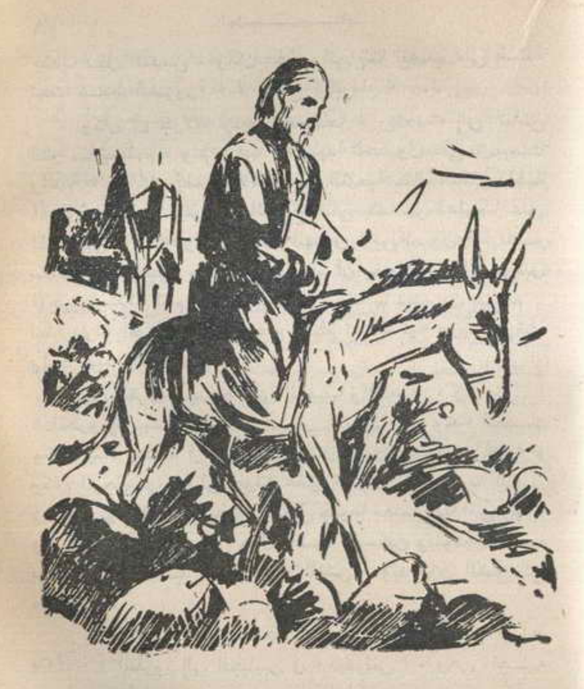
ولما كان البؤس فى البؤساء اكثر دائما من الإخاء فى الميسورين ، لذا كان كل شىء ينفد بسرعة قبل ان يحصل عليه ، كأنه ماء يسقط من السماء على ارض شديدة الجدب والظمأ . فهو مهما وصلت إليه الأموال . لم يكن يجد ابدا فى يده منها شيئا، وعندئذ كان يحاول تدبير اموره. فسماه الناس « سيدنا مرحبا » (بينفينى) .

- ٣ -

أسقف طيب وأسقفية شاقة

ومع أن نيافة الاسقف حول عربته المطهمة بخيولها الستة إلى صــدقات ، إلا انه لم يقلل من جولاته . وابروشيه (د) ابروشية مجهدة، فالسهول فيها جد قليلة، والجبال جد كثيرة، وتكاد تخلو من الطرق الممهدة . وعدد الكنائس المتفرقــة فى نجوعها وبلدانهـا وقراها ثلاثمائة وثمان وســتون ، يشعر سيدنا مرحبا أن من واجبه تفقدها وتفقد كهنتهـا وشعبها . وكان يذهب سيرا على قدميه عندما تكون الكنيسة قريبة من المدينة ، وفى عربة ريفية عندما تكون فى الســهل ، ويستخدم كل انواع الركائب المتاحة ليصل إلى كنائس الجبال . وكانت المراتان المسنتان تصحبانه . ولكن عنـدما يشعر ان الرحلة شاقة عليهما كان يذهب بمفرده .

وذات يوم وصل إلى (سينيز) (SENEZ) وهى مدينة قديمة تابعة له ، على ظهر حمار ، فقد كان كيس نقوده خاويا فى ذلك الحين فلم يستطع اكتراء ركوبة افضــل منه . وكان عمدة المدينة واقفا فى استقباله مع الأعيــان على بــاب دار الأسقفية ، ورأوه ينزل عن ظهر الحمــار ، ونظراتهم تنطق بالدهشة والاستنكار ، وضحك بعض الثراة الواقفين حوله ، فقال الاسقف : « ســيادة العمدة . وحضرات الأعيان . إنى اعرف ماذا اثار استنكاركم ، فانتم ترونهــا غطرسة منى انا الكاهن المسكين ان امتطى ركوبة امتطاها الســيد المســيح



وذات يوم وصل إلى (سينيز) وهى مدينة قديمة تابعة له ، على ظهــر حمــار ..

عندما دخل القدس . ولكن عذرى انى إنما اقدمت على هذا تحت ضغط الضرورة ، لا بدافع الكبرياء » . . .

وكان فى جولاته رقيقا متسامحا ، ويتحدث إلى الناس اكثر مما يعظهم . ولم يذهب قط بعيدا للحصول على تشبيهات وامثلة ، بل كان يضرب لأهل هذه الناحية مثال سكان ناحية اخرى مماثلة . فيقول فى النجوع التى يقسو اهلها على المحتاجين : « انظروا إلى اخوانهم فى (بريانسون) ! لقد سمحوا للمحتاجين والأرامل والأيتام ان يحصدوا مراعيهم قبل الآخرين بثلاثة ايام . وشيدوا لهم مجانا ما تهدم من بيوتهم . لهذا بارك الله فى هذا النجع ، فلم تحدث فيه جريمة قتل واحدة منذ مائة عام ! » .

وفى القرى الجشعة إلى الكسب والحصاد ، كان يقول : « انظرو إلى سكان قرية (أمبران) . إذا جاء وقت الحصاد وكان ابناء احدهم فى الجيش وبناته يخدمن فى بيوت المدينة ، وكان الرجل مريضا أو يعوقه عائق ، أوصى الكاهن به الناس فى عظة يوم الأحد ، فيخرج الناس جميعا بعد القداس رجالا ونساء وبنات وبنين إلى حقل هذا المسكين ويقومون عنه بالحصاد مجانا ، ويجمعون القش ، ويدخلون القمح إلى مخزنه ! » .

وفى الأسر التى بها انقسامات بسبب النقود او الميراث يقول : « انظروا إلى الجبليين فى (ديفولنى) ، وهى ناحية موحشة جدا لم يسمع فيها صداح البلبل منذ خمسين سنة ، عندما يموت هناك رب اسرة ، يهاجر اولاده الفتيان لطلب الرزق ويتركون الميراث للبنات كى يجدون ازواجا ! » .

وفى النواحى التى يغرم اهلها بالقضايا والمنازعات امام المحاكم يقول : « انظروا إلى فلاحى (وادى كويراس) . انهم ثلاثة آلاف نسمة ! ما أشبههم بجمهورية صغيرة ! وهم لا يعرفون قاضيا ولا محضرا ، فالعمدة يقوم بكل شىء . فهو الذى يوزع أنصبة الضرائب ، ويحصل من كل واحد بذمة الله وعدله ، ويحكم فى القضايا مجانا ، ويوزع الميراث بلا اتعاب ، ويصدر الأحكام بلا رسوم ، ويطيعه الجميع لأنه رجل عادل صالح وسط اناس بسطاء » .

وعلى هذا النحو البسيط كان يحل فى كل ناحية مشكلاتها ، وهو يتكلم بوقار وجد وأبوة ، وعندما تعوزه الأمثلة الواقعية ، كان يضرب امثلة خيالية كما كان يصنع السيد المسيح ، تنفذ مباشرة إلى الصميم ، بقليل جدا من الكلمات وكثير جدا من الصور والتشبيهات .. وهكذا كانت بلاغة السيد المسيح المقنعة المفحمة .

— ٤ —

أعماله مطابقة لأقواله

وكانت احاديثه لطيفة وكلها بهجة . وكان يتبسـط مع العجوزين اللتين تقضيان حياتهما إلى جواره ويضع نفسه تحت تصرفهما . وعندما كان يضحك كانت ضحكته اشبه بضحكة تلميذ ! .. وكانت مدام مجلوار تلقبه « صاحب العظمة » . وفى ذات يوم نهض من مقعده وذهب إلى مكتبته ليحضر كتابا ، وكان هـذا الكتاب فى رف مرتفع ، ولما كان الأسقف قصير القامة فإنه لم يستطع الوصول إليه ، فقال : « مدام مجلوار . هات لى مقعدا اقف عليه ، لأن « عظمتى » اضأل من ان تصل إلى هذا الرف ! » .

وكانت له قريبة بعيدة ، هى « الكونتس دى لو » ، قلما تدع فرصة إلا وتكرر فيها — فى حضوره — ما كانت تسميه « آمال » ابنائها الثلاثة فقد كان لها اقارب مسنون جدا كان اولادها ورثتهم الطبيعيين فأصغر اولادها سيرث من عمة لها إيرادا سنويا قدره مائة الف فرنك ، والثانى سيرث لقب دوق من عمه ، والأكبر سيرث لقب الإمارة من جده ! وكان الأسقف يصغى عادة وهو ساكت سكوت المغضى عن الضعف البشرى ، ولكنه ذات مرة بدا اكثر شرودا من المعتاد ، بينما « الكونتس دى لو » تفيض فى تفصيلات هـذه التركات المأمولة . وقالت له فجأة : « يا إلهى ! إنك يا بن عمى شديد الشرود ! فيم تفكر او بم تحلم ؟ » .

— أفكر فى شىء قاله القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم فيمن لا يمكن ان يرثه احد ! » .

وفى ذات يوم تلقى نعيا مطبوعا لاحـد اعيان الإقليم ، فيه عشرون سطرا من ألقاب ومناصب ذلك الوجيه ، ثم قائمة طويلة بأسماء اقاربه واجداده من كبار الاقطاعيين السابقين وحملة الألقاب النبيلة ، فهز الأسقف رأسه وقال : « إنى لأرثى لظهر ملك المـوت الذى سيحمل كل هـذا العبث من الألقاب والمظاهر الدنيوية ! وما اعجب ان يتخذ الناس الموت مناسبة للتفاخر الفانى ! » .

وعندما كان يتعلق الأمر بالصـدقات ، لم يكن يحجم او يحفل أمام الرفض ، وكان يتفوه عندئذ بكلمات تدعو للتأمل . وفى ذات يوم كان يطلب عطايا للفقراء فى صالون بالمدينة . وكان موجـودا بين الحاضرين المركيز « دى شانترسييه » المسن البخيل الثرى جـدا ، وكان يجمع بين النقيضين ، فهو ملكى متطرف وفولتيرى متطرف ، واتجه إليه الأسقف ولمس ذراعه وقال : « سيادة المركيز ، يجب ان تعطينى شيئا ! » . فالتفت إليه المركيز وقال : « عنـدى فقرائى يا سيدنا ! » .

— إذن اعطنى إياهم !

وذات يـوم وهو فى الكاتدرائيـة القى هـذه العظة : « إخوتى واحبائى ! فى فرنسـا مليون وثلاثمائة الف منـزل للفلاحين ليس بكل منها إلا ثلاث فتحـات ، ومليون وثمانمائة الف مسكن لها فتحتان : البـاب والنافذة . واكثر من ثلاثمائة الف مسكن فلاح ليس لها إلا « فتحـة واحدة هى البـاب .

وهذا بسبب ما يسمونه ضريبة الأبواب والنوافذ . فلا غرابة ان تكثر بين الأطفال والنساء الحميات والأمراض ! يا ويلنا ! إن الله يعطينا الهواء مجانا والقانون يبيعه للناس . وانا لا اتهم القانون ، ولكنى أبارك الرب ! وأذكركم هو كريم بلا حدود . وفى اقاليم (الايزير) ISERE ، والألب ، والفار VAR لا يملك الفلاحون عربات ذات عجلة واحدة لنقل السماد ، لذا ينقلونه على ظهورهم . ولا يملكون شموعا ، لذا يشعلون اغصانا مغموسة فى الراتنج . ويصنعون الخبز لستة اشهر مقدما ، ويخبزونه على روث البقر الجاف (الجلة) ، وفى الشتاء يكسرون هذا الخبز بالفأس ، وينقعونه فى الماء اربعا وعشرين ساعة حتى يتسنى لهم اكله . يا إخوتى واحبائى ، ارحموا المساكين ، واشعروا بما يعانونه من حولكم ! » .

* * *

وكان يتكلم ببساطة تامة مع العلية والبسطاء ، بلا تغيير او تمييز ، ولا يسارع إلى إدانة شىء ، وليس فيه شىء من تزمت الصارمين والفريسيين ، ويرفع صوته بالتعليم عاليا ويندد بالمتزمتين قائلا : « إن لحم الإنسان هو عبئه وغوايته فى آن واحد . فهو يجره وراءه ، ويستجيب له ! ولذا كان عليه ان يراقبه ويحتويه او يكبحه ولا ينقاد له إلا للضرورة القصوى . ومن الجائز أن يكون فى هذا الانقياد خطيئة ، ولكن الخطيئة فى هذه الحالة غير مميتة . إنها عثرة ، قد يقع بها المرء على ركبتيه ، وتصبح بعد ذلك ركوع يختم بالصلاة والتوبة ! ان القداسة استثناء ، اما القاعدة فهى البر او العدل او

الصلاح . أخطئوا إذن ، واعثروا ، ولكن كونوا عادلين صالحين . إن قانون الإنسان هو الإقلال من الخطيئة قدر الامكان ، أما الامتناع التام عن الخطيئة فهو حلم الملائكة . فكل ما هو أرضى خاضع للخطيئة ، لأن للخطيئة جاذبيتها ! » .

وعندما كان يرى الناس يتصايحون وينفد صبرهم بسرعة، يقول باسما : « يبدو ان النفاق والرياء مستشريا ، بين الناس . فالمراءون هم الذين يسارعون بالاستنكار تغطية لذنوبهم ! » . وكان شديد الرفق بالنساء والفقراء الذين تبهظ كواهلهم اعباء المجتمع البشرى . لذا كان يقول : « إن اخطاء النساء والأطفال والخدم والضعفاء والجهلاء إنما هى فى الحقيقة اخطاء الأزواج والآباء والأسياد والأقوياء والأغنياء والعلماء ! » .

وكان يقول أيضا : « اما الجهلاء فسارعوا إلى تعليمهم، ما استطعتم ، أقصى تعليم ممكن . . فالمجتمع مذنب ومسئول عن عدم تعليم الناس بالمجان ! وبذلك تنتشر الظلمة ويجب أن نتحمل عواقبها . فالنفس المعتمة تعشش فيها الخطايا وتتكاثر ، والمذنب ليس مرتكب الخطيئة بل من نشر الظلام والعتمة فى النفوس ! » .

ومن هذا يتضح انه كان ذا اسلوب خاص فى النظر إلى الأمور والحكم عليها . واشك انه استقى هذا من الإنجيل مباشرة . وذات يوم سمع فى احد الصالونات قصة قضية جنائية يحققون فيها وسيصدر فيها الحكم . وهى قضية . رجل مسكين بائس دفعه حبه لامرأة وللطفل الذى أنجبه منها، وقد نفدت حياته ، إلى الاقدام على تزييف النقود. وكانت جريمة

تزييف النقود يومئذ عقوبتها الاعدام . وكانوا قد قبضوا على المراة وهى تروج اول قطعة نقود زيفها صاحبها . ولكن لم تكن تحت يدهم ادلة ضدها تثبت عليها التزييف . فهى وحدها التى كانت تملك اتهام عشيقها والقضاء عليه إذا وشت به . والحوا عليها ، واصرت على الإنكار . وعندئذ قرر المدعى العام ان يلجا للحيلة ، واستعان بكتابات ملفقة لإيهامها بان عشيقها يخونها مع امراة اخرى . فاستشاطت غضبا واشتعلت غيرتها ، فوشت بعشيقها واعترفت عليه اعترافا كاملا مؤيدا بالادلة ، وهكذا قضى على الرجل . وستتم محاكمته قريبا فى إيكس، مع شريكته. وكان الناس يروون ذلك وهم مبهورون ببراعة المدعى العام وسعة حيلته ، لانه نجح فى إشعال الغيرة فتكشف الحقيقة ، وتوصل إلى العدالة عن طريق استغلال انتقام المراة من عشيقها الخائن فى تصورها . واصغى الأسقف لهذا الحديث كله فى صمت حتى نهايته ، وعندئذ سالهم :

ــ اين سيحاكم هذا الرجل وهذه المراة ؟

ــ فى محكمة الجنايات .

فسالهم : «واين سيحاكمون المدعى العام على خدعته؟» .

* * *

وحدث امر نادر الحدوث فى (د) إذ حكم على رجل بالاعدام بتهمة القتل ، وهو رجل تعس ليس اميا ولا جاهلا تماما ، كان يعمل مشعوذا فى الأسواق الريفية وكاتبا عموميا بها فى نفس الوقت . وشغلت المدينة بالقضية . وفى ليلة تنفيذ الإعدام مرض قسيس السجن ، وصار لا بد من تدبير كاهن آخر ليساعد المحكوم عليه فى لحظاته الأخيرة . وذهبوا

لاستدعاء خورى المدينة ، ويبدو انه رفض قائلا : « هذا ليس من شانى ، فانا لا شان لى بهذه السخرة ولا بهذا المهرج ، وانا ايضا مريض » . ونقلوا إلى الأسقف ما قالوا وطلبوا منه الحل ، فقال : « حضرة الخورى معه حق . ليس هذا مكانه ، بل مكانى انا ! » .. ومضى على الفور إلى السجن ، ونزل إلى زنزانة « المهرج » وناداه باسمه ، وتناول يده ، وكلمه . وقضى سحابة النهار معه ، وقد نسى طعامه ونومه ، وهو يضرع إلى الله لخلاص روح المحكوم عليه ، ولخلاص روحه هو ايضا . وقال له أحسن الحقائق ، وهى دائما أبسطها ، وكان له بمثابة الأب والأخ والصديق .. ثم باركه البركة الأسقفية . وعلمه كل شىء وهو يطمئنه إلى محبة الرب وغفرانه ويدخل عليه العزاء ، كان هذا الرجل سيموت بائسا لأن الموت كان يبدو له هوة ما لها من قرار . لذا كان يتراجع وهو على شفاها فى ذعر . ولم يكن جاهلا تماما بحيث لا يكترث ، وكان الحكم عليه قد جعله اشد تعلقا بالحياة ، ولكنه رفع الغشاوة عن عينيه فرأى تفاهاتها ، وأطبقت عليه ظلمة اليأس ، ولكن الأسقف ابدى له وسط غياهبه فجوة من الضياء .

وفى الصباح ، عندما جاءوا لأخذ المسكين ، كان الأسقف هناك. وتبعه وبدا لعيون الجماهير المحتشدة لمشاهدة الإعدام فى طيلسانه البنفسجى ، وصليب الاسقفية يتدلى فوق صدره ، يمشى جنبا إلى جنب مع هذا المسكين المقيد بالحبال. وصعد معه إلى العربة المكشوفة ، وصعد معه إلى منصة المقصلة ، فاذا بالمسكين الذى كان منهارا مبتئسا بالأمس ، وقد بدا متهللا ، لانه شعر ان روحه تصالحت مع خالقها وان

ابواب الرجاء مفتوحـــة امامه . وعانقه الاسقف وقبله ، وفى لحظة هبوط حد المقصلة هتف به : « من يقتله الناس يبعثه الرب حيـــا ! ومن يطرده إخوته ، يفتح له الأب ذراعيــه ! استبشر ، وادخل من باب الرجاء إلى الحياة الابدية ! فالأب السماوى فى انتظارك ! » .

وعندما هبط من فوق منصة المقصلة ، كان فى عينيه ضياء جعل الحشود تفسح له الطــريق ، وهم لا يدرون ايهما كان اروع ، اهو شحوبه ام طمأنينته . وعندما عـــاد إلى المسكين المتواضع الذى يسميه باسما قصره ، قال لأخته : « لقد اديت خدمة الرب بثياب الكهنوت ! » .

وظلت عملية الإعدام بالمقصلة التى شـــهدها الأسقف عالقة بوجدانه إلى امد طويل ، لأن صدمته بهذا الواقع الدامى كانت رهيبـــة . فهـــذه الآلة التى يسمونهـــا اداة العقـــاب والقصاص رهيبة جدا لمن يشهدها وهى تقوم بعملها . اما وهى قائمة هكــذا عن بعد . بدون عمـــل ، فالنفس لا تدرك خطورتها الحقيقية ، لأنها مجرد نصب هائل من خشب وحديد وحبال . لا حياة فيها ولا دم تريقه . ولكنها حين تعمل تتحول إلى كيان له إرادة ، وبصر ، وفهم ، وتملأ النفوس قشعريرة ، وتتخذ فيها ابعادا جديدة . إنها تصبح شريكة الجـــلاد التى تلتهم ، وتفترس اللحم وتريق الـــدم ، بل تعبه عبـــا ! انهـــا وحش خلقه القـــاضى والنجار معا ، انها شبح مخيف يستمد حياته من عشرات الاعمار التى يقضى عليها !

لذا كان وقعها على الأســـقف « سيدنا مرحبا » هائلا جدا وعميقا جدا ، ولذا بدا فى الايام التالية مهموما ، وفارقته رباطة الجاش التى رآها الناس فى ذلك الموقف ، واستولى

عليه القلق مما يسمونه عدالة المجتمع . وكانما انقلب يؤنب نفسه ، وكان فى بعض الأحيان يكلم نفسه ويناجيها بصـــوت نصف مسموع كله اسى وشجن . وهذا ما سمعته اخته ذات مساء يقوله : « لم اكن اتصور ان الامر بهذه الوحشية ! ومن الخطا ان انغمس فى قانون الله بحيث اغفل عن قانون البشر . ولكن الموت ليس من حق احد غير الله . فبأى حق يمس الإنسان هذا الشىء المجهول ؟ » .. ومع مرور الوقت خفت حدة هذا الهم ، ولعل هذه الانطباعات محيت . ولكن لوحظ ان الأسقف تعمد بعدها الا يمر بساحة الإعدام تلك !

* * *

وكان فى وسع الناس ان ينادوا مســـيو ميرييل فى اى ساعة ليدعوه إلى سرير مريض او محتضر . فهو لا يجهل ان هذا واجبه الأكبر وعمله الأعظم . وعائلات الأرامل واليتامى لم تكن بهـــا حاجة إلى استدعائه ، لانه كان يذهب إليهم من تلقاء نفسه . وكان يعرف كيف يجلس ويصمت الســـاعات الطوال بقرب الرجل الذى فقد زوجته التى كان يحبها ، او الأم التى فقدت ولدها . وكما كان يعرف الوقت الذى يحسن فيه الصمت ، كان يعرف الوقت الذى يحسن فيه الـــكلام . ويا له من معز رائع ! انه لم يكن يحاول محو الألم بالنسيان ، بل يضخمه ويجعله عظيما بالرجاء . وكان يقول : « لا تنظروا إلى ما يتعفن من الموتى ، بل إلى ما يظل منهم حيا لانه تحول إلى نور فى ملكوت السماء ! » .. وكان يعـــرف ان الإيمان يقوى ، ولذا كان يعزى اليائس المحزون بان يشير إلى اخ له مذعن لإرادة الله ، ويحول الم من ينظـــر إلى حفـــرة القبر ، بتحويل نظره إلى نجم فى قبة السماء !

— ٥ —

سيدنا «مرحبا» لا يستهلك أثوابه الخارجية

كانت حياة مسيو ميرييل الخارجية تملؤها عين افكار حياته الداخلية . فمن يراها عن كثب يجدها مهيبة فاتنة مثل حياة الفقر التطوعى التى كان يعيشها اسقف (د)، فهو ـ شأنه شأن كثيرين من الشيوخ ومعظم المفكرين — لا ينام إلا قليلا . ولكن هذا النوم القصير كان عميقا . وكان فى الصباح يقضى ساعة فى التأمل ، ثم يتلو قداسه ، إما فى الكاتدرائية او فى بيته ، ومتى فرغ من قداسه ، افطر بخبز الجودار المغموس فى لبن بقرتيه . ثم يشرع فى العمل .

وكان عمله كثيرا وشاقا ومتنوعا . فهو يقابل من يفد عليه من القسوس التابعين له ، او يرد على مكاتباتهم ، ويقابل الموظفين العموميين ، ويكتب للجهات الرسمية التقارير ، وكذلك يكتب التقارير للكرسى الرسولى ، ويرد على الإفادات الرسمية ، وينظر فى الملتمسات ، ويطوف بالكنائس البعيدة ، او يزور المرضى ويتفقد الأرامل واليتامى ، ويقابل ذوى الحاجات ، ويذهب لجمع التبرعات من الاغنياء ، ويعد المواعظ ، فاذا بقيت من هذا كله ساعة من نهار او من ليل قضاها فى القراءة والدرس ، وفى زراعة حديقته الصغيرة . والحق انه كان يسمى عمله بكل انواعه « زراعة الحديقة » ، لان « الروح ايضا بستان » ، فاذا اعتنى بارواح الناس ، او روحه ، او حديقته ، فهو بستانى !

وحوالى الظهر ، عندما يكون الجو جميلا ، يخرج

للمشى على قدميه فى الريف او فى المدينة ، وكثيرا ما يدخل الاكواخ الحقيرة التى يمر بها فى طريقه . وكان الناس يرونه يمشى بمفرده ، مختليا بافكاره ، خافض البصر ، متوكئا على عصاه الطويلة ، لابسا معطفا مبطنا بنفسجى اللون شديد الدفء ، وفى قدميه جورب بنفسجى وحذاء غليظ ، وعلى راسه قلنسوة مسطحة ، على زواياها ثلاثة اشرطة مذهبة .. واينما مر فهو يوم عيد للناس! فكان مروره بمكان يملأه حرارة وضياء، او يخرج المسنون والأطفال لرؤية الأسقف كما يخرجون على ابوابهم للتمتع بالشمس . ويباركهم ويباركونه . ويشيرون إلى بيته ليدلوا عليه اى محتاج .

وهنا وهناك ، كان يقف ويكلم صغار الغلمان والبنات ويبتسم للأمهات . وكان يزور الفقراء ما وجد معه نقودا ، حتى إذا صار خالى الوفاض زار الاغنياء ! .. ولما كان من عادته أن يستبقى رستامياته (ثيابه الخارجية) اطول وقت ممكن ، حتى لا يشترى ثوبا جديدا . لذا كان لا يخرج إلى المدينة إلا فى معطفه المبطن البنفسجى اللون ، فكان هذا يضايقه فى الصيف .

وعندما يعود من السير على قدميه فى الظهيرة يتغدى . وكان غداؤه مثل إفطاره . وفى المساء ، فى الساعة الثامنة والنصف يتعشى مع اخته ، وتقف مدام مجلوار خلفهما لخدمتهما . ولم يكن هناك قط ما هو اكثر تقشفا من هذا العشاء ، وإذا كان لدى الاسقف ضيف من القسوس على العشاء ، انتهزت مدام مجلوار هذه الفرصة لتقدم لسيدنا سمكة ممتازة من البحيرات ، او صيدا من حيوانات الجبال او طيورها .. فكل قس يزوره كان ذريعة لعشاء جيد ، وكان

الأسقف يترك مدام مجلوار تصنع ما تشاء فى هذه المناسبة . اما فيما عدا هذا فكان عشاؤه العادى لا يتكون مطلقا إلا من خضراوات مسلوقة فى الماء وحساء بالزيت .

وبعد العشاء يظل يتحدث نصف ساعة مع الآنسة اخته ومدام مجلوار ، ثم يدخل حجرته ويشرع فى الكتابة ، على بعض اوراق مفردة احيانا ، او على هامش كتاب ، احيانا اخرى . وكان متعلما وعالما إلى حد ما ، وقد ترك عدة مخطوطات ، منها بحث طريف فى قول سفر التكوين « فى البدء كان روح الله طافيا على وجه الغمر » ، وقارنه بأقوال اخرى من ديانات شرقية ، واساطير الكلدانيين وغيرهم . وكان من عادته احيانا وسط القراءة ، كائنا ما كان الكتاب الذى بين يديه ، ان يستغرق فى تأمل عميق قد لا تبدو له علاقة إطلاقا بما يطالعه ، ويسطر بضع عبارات على هامش الكتاب . وتحت يدنا إحدى هذه الخواطر ، نوردها فيما يلى : « انت يا من انت ! إن سفر الجامعة يدعوك الكلى القدرة. والمكابيون يدعونك الخالق . والرسالة إلى اهل افسس تدعوك الحرية. وباروخ يدعوك العظمة او المقدار ، والمزامير تدعوك الحكمة والحق ، ويوحنا يدعوك النور ، واخبار الملوك تدعوك المولى ، وسفر الخروج يدعوك العناية ، والإنسان يدعوك الأب ، وسفر اللاويين يدعوك القداسة ، والخليقة تدعوك الله ، ولكن سليمان يدعوك الرحيم . وهو اجمل اسمائك قاطبة ! . .

وفى نحو الساعة التاسعة تذهب المرأتان إلى غرفتيهما فى الطابق العلوى ، وتتركانه وحده فى الطابق السفلى . وهنا يحسن بنا ان ندلى بصورة دقيقة لمسكن اسقف (د .) . .

- ٦ -

من الذى يحرس له مسكنه

قلنا إن منزله كان يتكون من الطابق الأرضى وطابق واحد . وفى الطابق الأرضى ثلاث غرف ، وثلاث غرف اخرى فى الطابق الأول ، يعلوها مخزن الغلال . وخلف الدار حديقة صغيرة . والمرأتان تشغلان الطابق الأول ، ويقطن الأسقف الطابق السفلى . وكانت الغرفة التى تفتح بابها على الشارع هى حجرة طعامه ، والغرفة الثانية مخدع نومه ، والثالثة مصلاه . ولا يمكن الخروج من هذا المصلى بدون المرور من غرفة نومه ، وكذلك لا يمكن الخروج من حجرة نومه إلا عن طريق حجرة الطعام .

وفى المصلى ، فى الصدر ، توجد خلوة مغلقة بها فراش لحالات الضيافة الطارئة . وكان نيافة الأسقف يقدم هذا الفراش لقسوس الريف الذين تأتى بهم حاجات كنائسهم إلى مدينة (د) . اما صيدلة المستشفى سابقا ، فهى بناء صغير ملحق بالبيت ، ومقتطع من الحديقة ، وقد حولها إلى مطبخ ومخزن للمؤن . ويوجد فضلا عن هذا بالحديقة حظيرة كانت المطبخ السابق للمستشفى وفيها يضع الأسقف بقرتيه . واياً كانت كمية اللبن التى تدرها له البقرتان ، فنصفها يذهب يوميا إلى مرضى المستشفى ، وكان يعبر عن ذلك بقوله : « إنى بهذا اؤدى العشور ! » . .

وكانت حجرة نومه متســـعة ولذا من الصعب تدفئتها فى الفصل البارد بتلك المنطقة الجبلية . ولما كان خشب التدفئة غاليا جدا فى (د) لذا خطـر للأسقف أن يعـد لنفســـه فى حظيرة البقرتين حجيرة جعل لها سورا من الخشب ، ليستمد الدفء فى الليالى الباردة من حرارة البقرتين ، وكان يسمى هذا المكان « صالونه الشـتوى ! » . ولم يكن فى صـالونه الشتوى ذاك ، مثل حجرة المـائدة ، اثاث إلا منضـدة من الخشب الابيض ، مربعة الشكل واربعة كراسى من القش . اما حجرة المائدة فكانت مزينة بصوان قديم مدهون بطلاء مائى لونه وردى. ومثل ذلك الصوان موجود ايضا فى المصلى ولكنه مزين بالمفارش والمخرمات المقلدة ، وقد جعل منـه مـذبح صلواته .

وكانت السـيدات الثريات والنقبات من اهـل (د) ، كثيرا ما تبرعن لتكاليف مذبح أنيق جميل جديد لمصلى سيدنا ، ولكنه كان كلما وصلت النقود إلى يده وزعها على الفقـراء والمحتاجين . وكان يعلق على هذا بقوله : « إن اجمل مذبح يقام لإله الرحمة والمحبة هى روح مسكين ادخلنا العزاء على نفسه فنشكر الرب من اعماقه ! » .

كان فى مصلاه ايضا مقعدان من القش للركوع عليهما ، وهناك كرسى ذو ذراعين منخفض ايضا ومن القش كذلك فى مخدع نومه . وكان إن اتفق له استقبال سـبعة او ثمـانية اشخاص دفعة واحدة ، كالمحافظ او الجنرال واركان حـرب الالاى المعسكر فى المدينة ، او بعض تلاميذ مدرسة اللاهوت الصغيرة ، فلا بد من إحضار المقـاعد الموجودة فى الحظيرة

« صالون الشتاء» وفى المصلى، وإحضار الكرسى ذى الذراعين من حجرة النوم . وبهذه الطريقة يمكن جمع حوالى احد عشر مقعـدا للزائرين .. وفى بعض الاحيـان يكون الزائرون اثنا عشر . عندئذ يخفى الأسقف حرج الموقف بان يظل واقفا امام المدفأة إن كان الوقت شتاء ، او يتمشى فى الحديقة إن كان الوقت صيفا ! .. وكان ثمة ايضا كرسى فى الخلوة المقفلة ، ولكنه عال منزوع القش تقريبا وليس له إلا ثلاثة ارجـل ، فلا يمكن استخدامه إلا مسـتندا إلى الجـدار . وكان لدى الآنسة باتستين فى مخدعها اريكة من الخشب كانت مذهبة فيما مضى ومكسوة بالحرير المشـجر ، ولكنهـا اكبر من ان يتسنى إنزالها من السلم الضيق . ولذا لا يمكن احتسابها من بين اثاث الطوارىء .

وكان فى ذهن او طموح الآنسة باتستين ان تتمكن من شراء صالون من مخمل (اترخت) الاصـفر ، مصـنوع من خشب الاكاجو ، ولكن هذا يتكلف خمسمائة فرنك على الاقل، ولما كانت لم تتمكن من ادخار اكثر من اثنين واربعين فرنكا وكسور الفرنك فى خمس سنوات لهذا الغرض ، لذا انتهى بها الامر إلى التخلى عن الفكرة . وعـزت نفسـها بقولهـا : « ومن ذا فى هذه الدنيا يحقق مثله الأعلى كله ؟ » .

اما حجرة نوم الأسقف فليس هناك ما هو اسـهل من تخيلها ، ففيها باب يفضى إلى الحديقة ، وفراش مستشفى من الحرير له كلة من القماش الأخضر . وفى ظل الفراش ، خلف ستار ، ادوات زينة الأسقف وهى بقايا عهد تأنقه الغابر ، وهناك بابان احدهما بقرب المدفأة ويؤدى إلى المصلى ،

والآخر بقرب المكتبة يفضى إلى قاعة الطعام ، والمكتبة عبارة
عن صوان كبير له واجهة زجاجية غاص بالكتب ، والمدفأة من
الخشب المطلى بحيث تبدو كانها من الرخام ، وهى عادة خالية
من النار ، وفى المدفأة مسندان للحطب من الحديد مزخرفان
باكاليل زهر ، كانا فيما مضى مطليين بالفضة . وفوق رف
المدفأة صليب من النحاس كان بدوره مطليا بالفضة ، مثبت
على مخمل اسود رث ، فى إطار من الخشب المذهب الذى نصل
طلاؤه . وبقرب الباب المفضى إلى الحديقة منضدة كبيرة فوقها
محبرة ، ومزدحمة باوراق مهوشة ، ومجلدات . وامام هذه
المنضدة الكرسى ذو الذراعين المصنوع من القش ، وامام
الفراش مركع مستعار من المصلى .

وكانت على الجدار عن جانبى الفراش صورتان
لقسيسين، وجدهما الأسقف هناك عندما حل محل المستشفى،
فتركهما حيث هما ، ورجح انهما كانا لاثنين من رعاة المستشفى
والمتبرعين له . وعلى نافذته ستارة عتيقة من قماش غليظ
من الصوف ، انتهى امرها إلى البلى لفرط قدمها ، ولما كان
لا طاقة لميزانيته بتحمل ثمن ستارة جديدة ، فقد حاكت مدام
مجلوار وسطها الرث ، فجاءت الحياكة على شكل صليب
كبير ، فسره هذا الاتفاق الحسن ، وكان كثيرا ما يقول :
« كم زاد جمالها هكذا ! » .

وكانت جميع حجرات الطابق الأرضى والطابق الأول
مطلية بالجير الأبيض ، شأن ما هو متبع فى الثكنات
والمستشفيات . وجميع الحجرات مبلطة بالطوب الأحمر ،
وكانت مدام مجلوار تغسلها وتحكها كل اسبوع . وامام كل

سرير يوجد حصير من القش المجدول . وكان هذا المسكن
الذى تشرف عليه امراتان آية فى النظافة دائما ، من اعلاه إلى
اسفله . فالنظافة هى الترف الوحيد الذى كان الأسقف يسمح
به لنفسه ، ويقول : « هذا ترف لا يعز على الفقراء . . » .

ولكن الدقة تقتضينا أن نذكر انه احتفظ مما كان له من
عز سابق بستة اطباق من الفضة الأثرية الخالصة وملعقة
حساء من نفس المعدن النفيس ، كانت مدام مجلوار ترمقها
فى كل يوم بسعادة بالغة وهى تنظفها إلى ان تتلألأ وتضعها
على المفرش الأبيض الغليظ . وما دمنا نصور هنا الأسقف
كما كان ، فلا بد أن نضيف انه كثيرا ما كان يقول : « أرانى
اجد مشقة فى التنازل عن تناول الطعام فى الأوانى الفضية» . .
وينبغى أن نضيف إلى هذه الفضيات شمعدانين ضخمين من
الفضة الخالصة المصمتة ورثها عن اخت لجدته . وكان هذان
الشمعدانان يحملان شمعتين ، ويزينان عادة مدفأة الأسقف .
وعندما يدعو احدا للعشاء، كانت مدام مجلوار توقد الشمعتين
وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكان فى مخدع الأسقف بالذات ــ عند راس فراشه ــ
صوان صغير تضع فيه مدام مجلوار كل ليلة ــ بكل عناية ــ
الصحاف الفضية الست ومغرفة الحساء الكبيرة الفضية .
ويجمل بنا ان نقول إن المفتاح لم يكن ينزع من ذلك الصوان
ابدا .

وكانت الحديقة التى افسدتها إلى حد ما تلك الأبنية
القبيحة التى اشرنا إليها . عبارة عن أربعة مماشى متصالبة
متفرعة من مصرف للمياه ، وهناك ممشى خامس يدور حول

الحديقة محاذيا للسور الأبيض ، وكانت هذه المماشى تترك فيما بينها اربعة مربعات يحيط بها نبات البقس . وفى ثلاثة منها زرعت مدام مجلوار خضراوات ، وفى الرابع زرع الأسقف ازهارا . وكانت بضعة اشجار للفاكهة متناثرة هنا وهناك . وذات مرة قالت له مدام مجلوار فى شيطنة لطيفة : «يا سيدنا! انت تستغل كل شيء ، ولكن هذا المربع لا نفع فيه ! » .

فأجابها الأسقف بدماثته: «انت مخطئة يا مدام مجلوار. فالجميل يضارع فى نفعه المفيد . . بل ربما كان انفع منه ! » .

وهذا المربع المزهر قسمه الأسقف إلى اربعة أحواض ، وكان يشغله كما تشغله الكتب . ففيه يمضى بكل سرور ساعة او ساعتين فى رعاية وحفر الحفر لبذوره ، ولم يكن مع هذا عدوا للحشرات كما ينبغى للبستانى المحترف . ولم يكن عالما بالنبات ، فلا يشغله درسها ، بل هو عاشق للزهور لا اكثر ، علاقته بها علاقة هيام لا علاقة درس . وفى كل مســـاء — فى شـــهور الصيف الجافة — كان يسقى احواض زهـــوره من مسقاة من الزنك مطلية باللون الأخضر .

ولم يكن للبيت باب يقفل بالمفتاح . وكان باب قاعـــة الطعام الذى يفضى إلى ميـــدان الكاتدرائية مزودا فيما مضى بأقفال وترابيس كالتى تزود بهـــا ابواب الســـجون ، فأصر الأسقف على نزع كل هذه الحدائد . وهكذا صار هذا الباب فى الليل والنهـــار على السواء غير مقفل إلا بالأكرة . فليس على اى قادم ، فى اى ساعة من ســـاعات النهار او الليـــل ، إلا ان يدفعه بيده كى يفتح .

وفى البداية كانت العجوزان مروعتين من هذا الباب الذى لا يقفل ابدا ، ولكن سيدنا أسقف (د) قال لهما إن فى وسعهما وضع الترابيس على بابى حجرتيهما العلويتين إن شاءتا . وانتهى بهما الأمر إلى مشاركته ثقته وطمأنينته ، او على الأقل إلى التظاهر بمشاركته فيهما . وكانت مدام مجلوار وحدها هى التى تنتابها فى بعض الأحيان المخاوف . اما الأسقف نفسه فيمكن ان نجد تفكيره مشروحا — او على الأقل مشارا إليه — فى هذه السطور الثلاثة التى كتبها على هامش الانجيل : « هذا هو الفرق الضئيل بين الطبيب والكاهن : إن باب الطبيب ينبغى الا يقفل ابدا ، اما باب الكاهن فينبغى ان يظل مفتوحا دوما ! » .

وعلى هامش كتاب آخر ، عنوانه «فلسفة العلم الطبى» كتب هذه النبذة : « الست انا ايضا طبيبا مثلهم ؟ فانا ايضـــا لى مرضـاى ، فعندى مرضاهم ايضا الذين يسمونهم المرضى ، ثم عندى مرضـاى انا الذين اسميهم المساكين ! » .

وفى موضع آخر كتب : « لا تسأل من يطلب منك المأوى عن اسمه ، فإن من يحرجه ذكر اسمه بالذات هو الأحوج إلى مأوى عندك انت ! » .

وقد حدث ذات يوم ان سأله كاهن فاضل ، لا اذكر هل هو كاهن (كولوبرو) أم كاهن (بومبييرى) ، وبتحريض من مدام مجلوار غالبا : اليس سيدنا مجانبا الحذر الواجب بتركه بابه تحت رحمـــة كل من يدفعـــه بالليل او بالنهـــار . وهل لا يساوره احتمال حدوث مكروه عن هذا الطريق لبيت ليست عليه حراســة من اى نوع؟ فلمس الأسقف كتفه فى رقة وقال له:

الله خير حافظا ! » .

ثم خاض فى حديث آخـــر . وكان يقول بكل ارتيـــاح :
« هناك شجاعة مفروضة فى الكاهن ، كما أن هناك شجاعة مفروضة فى قائد كتيبة الفرسان . وكل الفرق بين الشجاعتين أن شجاعة الكاهن ينبغى أن تكون فى صـــورة الطمانينة التى لا حدود لها ! ... » .

- ٧ -

« كراقـــات »

وها هنا حدث يجمل بنا الا نغفله ، لأنه من هذا النوع الذى يرينا اى رجل كان اسقف (د) .

بعد القضاء على عصابة « جسبار بيس » الذى كان يروع شعاب الجبل فى (أوليول) اختبأ أحد مساعديه - ويدعى كراڤات - فى الجبل مع قراصنته من بقايا عصابة جســـبار بيس ، فى كونتية (نيس) ، ثم هرب إلى (بيمون) ، وبعدها ظهر فجاة فى فرنسا من جهة (برسيلونيت) ، وشـــوهد فى (جوزييه) فى بـــادىء الأمر ، ثم فى (تويل) ، وتـــوارى فى الكهوف ومن هناك صار يهبط على نجوع وقـــرى المنطقة ، للسلب والنهب والقتل .

وذات مـــرة توغل إلى (امبران) ، ودخـــل ليـــلا إلى الكاتدرائية وسلب مجوهرات قدس الأقداس ، فصار اسمه مثار الرعب . وبعثت الحكومة بعوث الشرطة فى اثره ولكن بلا فائدة ، لأنه كان يفلت دائما ، وفى بعض الأحيان كان يقاوم بالقوة المسلحة . فهو شخص بالغ الجسارة مخيف لا يتورع عن شىء .

ووسط كل هذا الارتياع وصل الأسقف ، ليقوم بجولته فى نواحى (شاستلار) : وجاء العمدة للقاء الأسقف وتوسل إليه ان يعود ادراجه من حيث اتى ، لان كرافات يسيطر على

الجبل حتى آرش وما بعدها ، الأمر الذى يشكل خطرا على السالك فى هــذه الناحية ولو كانت معه حراسة . ففى ذلك تعريض لا لزوم له لحياة شرطيين او ثلاثة لخطر الموت . فقال الأسقف : « هذا صحيح . ولذا قررت أن أمضى إلى هنــاك بلا حرس ! » .

فصاح العمدة : « كيف تفكر فى هذا يا سيدنا ؟ » .

ــ تفكيرا جديا ، إلى درجــة انى أرفض الحراســة وسأمضى وحدى بعد ساعة !

ــ تمضى ؟

ــ أمضى !

ــ وحدك ؟

ــ وحدى !

ــ إنك لن تصنع هذا يا سيدنا .

ــ بل هذا سأصنعه . ففى الجبل نجع متواضع من رعيتى لم أره منذ ثلاث سنين . وهم أصدقاء طيبون . رعاة صالحون لطاف شرفاء ، لا يملكون إلا عنزا واحــدة من كل ثلاثين عنزة فى قطعانهم . ويصنعون من الصوف أشغالا جميلة متعددة الألوان، ويعزفون موسيقى جبيلة على ناياتهم الصغيرة ذات الثقوب الستة . وهم فى حاجة إلى من يكلمهم بين الحين والحين عن الله . فماذا عساهم يقولون عن أسقف خائف ؟ ماذا يقولون عنى إن لم اذهب إليهم ؟

ــ ولكن القراصنة وقطاع الطريق يا سيدنا !

ــ آه ! لقد فكرت فيهم . معك حق . لقد ذكرتنى بهم ، وقد القاهم ، ولكنهم أيضا فى حاجة إلى من يكلمهم عن الله !

ــ ولكنهم يا سيدنا قطيع من الذئاب !

ــ يا سيادة العمدة ! ربما كان هذا القطيع بالذات هو ما اختارنى الرب لأكون راعيه ! فمن ذا يعرف طرق العناية الإلهية وحكمتها !

ــ ولكنهم سيسلبونك يا سيدنا !

ــ ليس معى شىء .

ــ سيقتلونك !

ــ يقتلون كاهنا فقيرا مسكينا يسير وهو يرتل صلواته؟ وما جدوى هذا ؟

ــ آه ياربى ! لا اتصور ما يحدث إن قابلوك !

ــ سأطلب منهم صدقة لفقرائى !

ــ يا سيدنا لا تذهب ! إنك تعرض حياتك للخطر !

ــ أهذا كل ما فى الأمر يا سيادة العمدة ؟ إنى لست فى الدنيا لأحافظ على حياتى ، بل لأحافظ على نفوس الناس !

فلم يبق بــد من تركه يرحل ، ومضى غير مصــحوب إلا بطفل تطوع ليكون دليله فى الطريق الجبلى . وقد تسامع الجوار كله بتهور الأسقف وتملكهم الفزع على حياته .

ولم يشأ فى هذه الرحلة الخطرة أن يصحب معه اخته ولا مدام مجلوار ، واخترق الجبل على ظهر بغل ، فلم يصادف فى طريقه احدا ، ووصل ســالما معافى إلى أصدقائه الرعاة

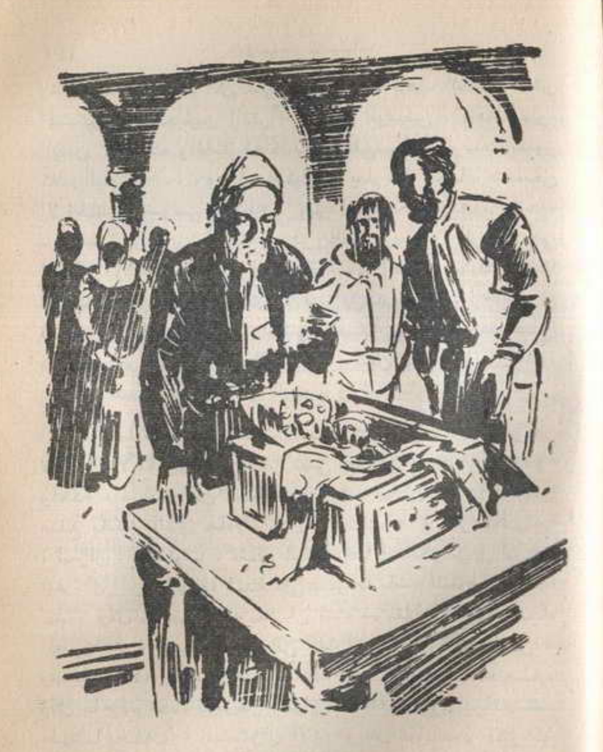
الطيبين ، ومكث عندهم خمسة عشر يوما يعظ ويعلم وينصح ويصلح . وعندما اقترب موعد رجوعه قرر ان ينشـــد ترنيمة « المجد لله » بملابس وابهة احتفالية . وتحدث فى هذا إلى القس. ولكن ما العمل وليس لديهم اى زينة او بهارج اسقفية، ولم يستطيعوا ان يقدموا له إلا صليبا ريفيا وبضع شرائط من الحرير الرث مزينة بخيوط من الذهب الزائف . فقال الأسقف : « يا حضرة القس ! سنرتل « المجد لله » بعد العظة ، وليكن ما اراد الله ! » .. وبحثوا فى كل القرى المجاورة ، فلم تستطع المنطقـــة جمع ما يكفى من ملابس الشمامسة اللائقة للجوقة التى ستقوم بالترتيل ، وبينما هم فى هذه الحيرة وصل صندوق كبير مع خيالين فتيين إلى باب مسكن القس ، برسم ســـيدنا الأسقف ، وفتح الصـــــندوق فاذا كل الجواهـــر والطنافس وملابس الكهنوت الذهبية وتاج رئيس اساقفة (مطـــران) وصليب من الذهب التى كانت قد سلبت من كاتدرائية نوتردام فى (امبران) قبل عدة شهور . وفى الصندوق ورقة مكتـــوب عليها : من « كرافات » إلى « سيدنا مرحبا » .

وابتسم الأسقف ميرييل وقال : « من يقنع بقلنسوة كاهن يرسل له الرب تاج مطران ! » .

فغمغـــم القس باســـما : « يرســـل له الله ... او الشيطان ! ؟ » .

فرمقه الأسقف بنظرة نافذة وقال بحزم : « بل الله ! » .

وعندما عاد الأسقف إلى شاستلار وجد فى بيت كاهنها الآنسة باتستين ومدام مجلوار وقد ارهقهما الانتظار والقلق .



وفتح الصندوق فإذا كل الجواهر والطنافس وملابس الكهنوت الذهبية وتاج رئيس اساقفة (مطران) ..

وقال لأخته : « الم اكن على حق ؟ لقــد ذهب الكاهن الفقير المسكين إلى الجبليين الفقراء خـــالى الوفاض . وعاد مملوء اليدين ! ذهبت وانا لا احتقب إلا ثقتى بالله . وعدت بكنوز كاتدرائية ! » .. وفى المساء قبل ان ينام قال ايضا : « ينبغى الا نخاف اللصوص والقتلة . فهذه مخاطر خارجية . ولنخف من انفسنا وسريرتنا فالتحيز هو اللصــوص ، والرذائل هى القتلة. فالأخطار الكبرى فى داخلنا. وما اهون ما يتهدد راسنا او كيسنا . ينبغى الا نفكر إلا فيما يتهدد نفوسنا ! » .. ثم التفت إلى اخته وقال : « لنكتف بالصلاة للرب إن خفنا خطرا من جانب قريبنا واخينا فى البشرية . ولتكن صلاتنا لا من أجلنا، بل لكى يحمى الله اخانا من الوقوع فى الخطيئة بسببنا ! » .

وفيما عدا هذا كانت الأحداث نادرة فى حياته . ونحن لا نروى إلا ما نعرفه ، ولكنه قضى عمره فى العادة على وتيرة واحدة . فالشهر من سنته ، كالساعة من نهاره .. أما ماذا صنع بالكنز الذى جاءه من « كرافـــات » ، كنز كاتدرائية (امبران) المسلوب ، فنحن نجد حرجا فى الخوض فى أمره . فقد كان إغراء جمالها شديد كى يسرقها باسم الفقراء ليعطيها لهم . وكل ما بقى عليه بعد ان تمت سرقتها ان يحول اتجاه المسروقات ، بحيث تذهب إلى الفقراء بدلا من اللصــوص . ولكننا لا نقطع بشىء فى هذا الصدد ، لانه لا يقين لنا بما صنع . وكل ما وقع تحت يدنا من القرائن قصاصة بين أوراقه كتب عليهــا بخطه : « الســؤال الآن هو هل نعيــــد الكنز إلى الكاتدرائية ، ام نعطيه للفقراء ! ؟ » .

- ٨ -

فلسفة بعد الشراب

كان السناتير (عضو مجلس الشيوخ) الذى اشرنا إليه آنفا رجلا مسموعا ، عرف كيف يشق طريقه غير ملق بالا إلى اى نوع من صنوف العوائق التى يسميها الناس « الضمير » ، فهو لا يثنيه عن هدفه ومطمعه شىء، بل يمضى إليه من اقصر الطرق ، والغاية عنده تبرر الوسيلة ، والغاية دائمــا هى المصلحة الخاصة . وقد صقله النجاح ، فصار يبدو دمثــا يعرف كيف يصانع ، واصبح بعد وصوله إلى مطامعه سمحا مع أبنائه وأنسبائه واصدقائه ، ياخــذ من الحياة جانبهــا الحسن ، وينعم بطيباتهـــا ، ويغتنم كل فرصها . أما ما عدا هذا من القيم والمبادىء فهو فى نظــره هراء وسخف . وكان حسن الفكاهة ذكيا ، وقد تعلم ما يكفيه للادعــاء بانه تلميذ لأبيقور ، مع انه كان شهوانيا فى حدود السلامة واللياقة . وكان يهزأ من الأمور اللامتناهية والمطلقة والأبدية . ويسمى أفكار الأسقف اضغاث أحلام ، ويضحك منها أحيانا فى تعال ممزوج بالدماثة امام الأسقف نفسه .

ولست ادرى اى مناسبة رسمية جمعت الكونت «س» (عضو الشيوخ) والأسقف ميرييل على مائدة العشـــاء عند المحافظ . وبعد العشاء الذى عب فيه هذا الكونت من الخمر الجيدة قال بمرح لا يفارقه الوقار : « لنتحدث معا يا سيادة الأسقف . فنحن نقيضان، وانا اعترف لك أن لى فلسفتى! » .

— ولم لا . يقال إن فلسفة المرء هى فراشه ، وأنت ترقد على فراش من ارجوان ! فتشجع عضو الشيوخ وقال : « لنكن طفلين طيبين ! » .

— او شيطانين إن شئت !

— إنى اعلن لك ان بيرون PYRRHON وهوبز والمركيز دارجن وم . نايجيون ومن إليهم ليسوا من الأوغاد ، وعندى فى مكتبتى كل كتب الفلاسفة مجلدة ، ومذهبة الحواشى!

— انهم مثلك يا سيدى الكونت !

— وانا أبغض « ديديرو » ، فهو ايديولوجى ، ومبالغ فى اقواله ، وثورى . وهو فى أعماقه مؤمن بالله مثل فولتير ، بل اشد تعصبا من فولتير . وقد سخر فولتير من « نيدهام » بغير حق ، لأن تجارب نيدهام اثبتت ان الله لا لزوم له . فما حاجة الإنسان إلى أب ابدى ؟ إن فرضية « يهوا » يا سيادة الأسقف تضايقنى وتضجرنى ! فليسقط هذا الكل الأعظم الذى يسحقنى سحقا ! وليحيا الصفر الذى يتركنى فى سلام ! واعترف لك كما ينبغى أن يعترف المرء لكاهنه اننى اكتفى بالبداهة السديدة ، ولست مفتونا بمسيحك الذى يبشر فى كل مكان بالتضحية والتنازل وإنكار الذات . فهذا نصح البخيل للصعاليك ! انكر ذاتى ؟ لماذا ؟ اضحى ؟ لماذا ؟ وفى سبيل ماذا ؟ فأنا لا افهم أن يضحى ذئب بنفسه فى سبيل ذئب آخر ؟ فلنبق فى الطبيعة ولنترسم خطاها ! نحن فى القمة فلتكن لنا فلسفة عليا ! وما جدوى أن نكون فى الاعالى إن لم نبصر إلى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش فى مرح وبهجة ما دمنا احياء .

فالحياة هى كل شىء . اما ان يكون للانسان مستقبل فى الأعالى أو تحت الثرى ، او فى اى مكان ، فذلك ما لا أصدق منه حرفا واحدا ! هناك من يوصينى بالتضحية وإنكار الذات، ولكنى لا اهتم إلا بالمحافظة على ما املك ، ولا اصدع رأسى بالتفكير فى الخير والشر ، والصلاح والطلاح ، والحلال والحرام . ولماذا ؟ بدعوى اننى سأقدم حسابا عن اعمالى . ومتى ؟ بعد موتى ! يا له من حلم جميل ! بعد موتى فليكن ما يكون! ولك ان تتناول حفنة من رماد بقبضة شبح! ولنواجه الحقيقة ، نحن العارفون الذين رفعنا قناع إيزيس : فليس هناك خير ولا شر ، ليس هناك إلا الكون والفساد . لنبحث عن الواقع ، ففى أطوائه تكمن كل الحقيقة . والواقع هو اغتنام الفرصة السانحة للمدح والتمتع بطيبات الحياة . عندئذ تتملىء بالقوة وتضحك من كل شىء ، وخلود النفس الإنسانية خدعة يصغى لها البلهاء ! يا له من وعد ساحر ، ان ابن آدم روح على الأرض تسكن الجسد ، ومتى بارحته صارت ملاكا كريما ، له اجنحة زرقاء ! أليس « ترتيليان » هو الذى قال إن القديسين سيطيرون من نجم إلى نجم . ليكن إذن ! سنكون جراد السماء ! ثم ماذا ؟ ثم نعاين الله ! إلا ان كل حديث عن الفردوس هراء ! والله خزعبلة كبرى ! وانا لا اقول هذا طبعا على رءوس الأشهاد ولا انشره فى الصحف ، ولكنى اقوله لك بين أصدقاء . والتضحية بالأرض فى سبيل الفردوس ، بمثابة إفلات الفريسة التى فى اليد املا فى ظل زائل او وهم باطل ! لست غرا كى انخدع بالمطلق اللامتناهى ، انا عدمى ! اسمى الكونت العدم ؟ عضو مجلس

شيوخ فرنسا ! فهل كنت شيئا قبل مولدى ؟ كلا ! هل سأغدو شيئا بعد موتى ؟ لا ! من انا ؟ حفنة تراب يدبرها جهاز بدنى ! وماذا يجب ان اصنع على وجه الأرض ؟ لى الخيار فى هذا ! إما أن استمتع او اقاسى ! وإلى اين تؤدى بى المعاناة ؟ إلى العدم ! والكون قد عانيت . وإلام تقضى بى المتعة ؟ إلى العدم ! ولكنى اكون قد استمتعت ! وهكذا تم اختيارى . قررت الا اكون مغفلا ، وان استمتع ما وسعنى الاستمتاع ! فانت فى هذه الدنيا إما آكل وإما ماكول : وقد اخترت ان آكل ! وخير لك ان تكون الناب من أن تكون العشب! هذه حكمتى ايها الأسقف ، وبعد ذلك زج بى إلى الحفرة ، فهى التصفية الأخيرة ولا شىء بعدها ! اما ان يقال لى إن أحدا هناك سوف يقول لى شيئا او يناقشنى الحساب ، فهذا ما اضحك منه ملء فمى ! هذه كلها من اختراعات المرضعات يحشين بها عقول الأطفال! كلا! ان غدنا هو الظلام المطبق ، وليس وراء القبر إلا المساواة فى العدم . اكنت فى الحياة ملكا ؟ اكنت صعلوكا ؟ اكنت شيطانا ؟ اكنت قديسا ؟ كل هؤلاء يصبحون بالموت سواسية ولا غد لهم بعده ابدا . عش إذن واستخدم ذاتك وانت حى للتمتع بالحياة . وهذه هى فلسفتى يا سيدى الأسقف ، ولن تغرر بى الأباطيل الأخروية ! ولكنى اقدر طبعا ان الصعاليك والضعفاء والفقراء والمحتاجين لا بد لهم من شىء ، لانهم لا يملكون شيئا . ليكن لهم « الله » إذن ! فهو عوض خيالى عما لا واقع له ! فالله لا يصلح إلا للعامة ، اما انا فلى فلسفتى الدنيوية الخالصة !

فصفق الأسقف بيديه وصاح :

ـ هذا هو الكلام ! هذه هى المادية سافرة ! ومن يملكها لا يكون غرا ! ولا يعيش لشىء أو مبدأ أو قيمة . فلا يتعرض للنفى مثل كاتو ولا للإحراق حيا مثل جان دارك ! سعداء هم امثالك من الماديين ، لأنهم تخلصوا بالمادية من كل مسئولية عما عدا ملذاتهم ومصالحهم الخاصة ، ولم يجدوا مانعا من أنفسهم يحول بينهم وبين التهام كل شىء ، بدون وازع ، وبدون قلق ، فهم يستولون بلا حساب على المناصب والرتب والأوسمة والألقاب ، وعلى السلطة المشروعة وغير المشروعة ، ويرتدون عن آرائهم عندما تكون الردة مفيدة ، ولا يتورعون عن الخيانة عندما تفىء عليهم الخيانة المنافع والمغانم . ولا يصيبهم مهما التهموا عسر هضم ، إلى ان يطويهم القبر . الا ما أمتع هذا ! ولست اخصك بهذا القول يا سيدى الكونت عضو مجلس شيوخ فرنسا ، إلا أنى لا يفوتنى أن أهنئك ، لأنه تسنى لك أن تعتنق هذه الفلسفة لانك من العلية المحظوظين الذين لديهم كل شىء. اما من ليسوا مثلك من أمراء الدنيا ، وتعضهم الحاجة بأنيابها ، فكيف يؤمنون بها؟ من اين لهم المتعة كى يجدوا المتعة ويعيشوا لها؟ إنهم تعساء ! والله لا المادة هو فلسفة الشعب الفقير التعس .

— ٩ —

الأخ كما تصفه أخته

ولكى نصف الحيـــاة الداخلية لأسقف (د) وكيف كانت المراتان الصالحتان تخضعان فى كل تصرفاتهما وافكارهما ، بل وعرائزهما النسوية السهلة الارتياع لعــادات ورغبــات الأسقف ، من غير ان تكلفاه التعبير عن ذلك بالكلام ، فليس اوفق لذلك من إيراد فقرات من خطاب كتبته الآنسة باتستين إلى الكونتس « بواشيفرون » صديقة طفولتها :

« د . فى ١٦ من ديسمبر — ٨ » .

« سيدتى العزيزة . ما من يوم يمر وإلا ونذكرك فيه ، وهذه عادتنا ، ولكن هناك سببا إضافيا . فمــدام مجلوار مزقت كل الورق القــديم الرث الذى كان على الجــدران ، واكتشفت تحته رسوما جميلة على جدران حجرتينا ، وكذلك فى صالونى الخالى من الاثاث والذى نستخدمه لنشر غسيلنا وجدنا على السقف تصاوير قديمة مذهبة . اما حجرة نومى فتصاويرها اجمل وتمثل شخصيات من الأساطير القديمــة ، تكاد تجعل من حجرتى متحفا صغيرا .

« وانا سعيدة جدا بالإقامة هنا . واخى طيب جدا ، يعطى كل ما تقع عليه يده للفقراء والمحتــاجين والمرضى . فالإقليم هنا فى حالة ضنك ، والجو قاس فى الشتاء ، ولا بد من عمل شىء للمســاكين المحتــاجين . اما نحن فى بيتنا فلا تكاد تنقصنا التدفئة والإضاءة ، وهذا فى حد ذاته نعمة جزيلة .

« ولاخى عادات خاصة به . فعنــدما يتكلم يقول ان الأسقف ينبغى ان يكون كذا وكيت . وينفذ هذه الأفكار . تصورى ان باب البيت لا يغلق ليلا ولا نهارا . يدخله كل من شاء ، فإذا به على الفور فى حجرة اخى ! وهو لا يخشى شيئا حتى فى الليل. ويقول ان هذه شجاعته الخاصة. وهو يريد منى الا اخاف عليه ، ولا ان تخاف عليه مدام مجلوار . ويعرض نفسه لكل المخاطر ، ويريد منا الا يبدو علينا اننا ندرك هذا ، ويجب ان نعرف كيف نفهمه .

« وهو يخرج تحت المطر ، ويمشى فى الماء ، ويســافر ويتجول فى الشتاء القارس ، ولا يخاف الليل ، ولا الطــرق المحفوفة بالمخاطر وعوارض الطرق وقطاعها .

وفى العام الماضى ذهب وحده إلى منطقة يسيطر عليها اللصوص ولم يقبل ان نصحبه ، وظل غائبا خمسة عشر يوما، ولما عاد لم نجد به سوءا ، وكان الجميع يحسبونه مات ، وقال لنا « هاكم كيف سرقونى ! » .

« وفتح لنا حقيبة فإذا بها كل المجوهرات التى سرقت من كاتدرائية (أمبران) ، وقد وهبها له أولئك اللصوص !

« وفى هذه المرة لم اطق السكوت ولمته ونحن فى العربة حتى لا يسمعنا احد . ولكن لا جدوى من الملام . وقد كففت الآن عن الانزعاج ، واشير إلى مدام مجلوار حتى لا تعارضه ، ولذا فهو الآن يجازف بنفسه كما يريد ، اما انا فآخذ معى مدام مجلوار إلى حجرتى ، واصلى من اجله ثم انام . وانا مطمئنة، لانى واثقة انه إن حدث له شىء كانت هذه نهايتى ، وسأذهب

للقاء ربى مع اسقفى واخى . اما مدام مجلوار فلقيت عناء اشد من هذا فى تعود هذا التهور كما تسميه . اما الآن فقد فاءت إلى الإذعان هى ايضا ، ونصلى من اجله معا ، ونخاف معا ، ثم ننام ! وإذا دخل الشيطان نفسه البيت ليلا فماذا نختشى؟ ليس عندنا ما نخاف عليه. ومعنا دائما ما هو اقوى من كل قوى . والشيطان يمكن ان يمر بيننا ولكنه لا يجسر على دخوله على كل حال ، لان الله يسكنه ! واخى لم تعد به حاجة إلى ان يقول لى شيئا الآن ، فانا افهمه من غير ان يتكلم . ونحن نتكل على عناية الله بالكامل . وهكذا ينبغى ان نكون ونحن نعيش مع رجل وهبه الله عظمة الروح .

« وارجو يا سيدتى العزيزة ان تطلبى من قريبك غبطة الكردينال ان يذكرنا فى صلواته » .

باتستين

— ١٠ —

الأسقف أمام ضياء مجهول

وفى فترة تالية لتاريخ الرسالة التى اوردنا جانبا منها فى الفصل السابق اقدم الأسقف على عمل ، كان فى نظر المدينة باسرها اشد مجازفة من رحلته فى الجبال وسط قطاع الطرق . فقد كان بالقرب من مدينة (د) فى الريف رجل يعيش متوحدا . وكان هذا الرجل — إذا قلنا الحق بلا مواربة — عضوا قديما فى مجلس ميثاق الثورة الفرنسية واسمه (ج) .

وكان مجتمع مدينة (د) الصغير يتكلم عن هذا الميثاقى (ج) بشىء من الفزع. اتدرى ما معنى كلمة « الميثاقى » ؟ كان معناها فى ذلك الحين مرادفا لمعنى الوحشى الكاسر ، وهو من بقايا ذلك العهد الذى كان لقب كل فرنسى فيه هو «المواطن». ولم يكن قد اقر إعدام الملك لويس السادس عشر ، ولكنه كان اشبه بمن وافقوا عليه . فهو إذن « شبه قاتل الملك » . وكان رجلا فظيعا . وقد تتساءل كيف لم يقدم للمحاكمة فور عودة امراء فرنسا الشرعيين بعد سقوط نابليون ؟ ربما قلت انه من الجائز عدم الحكم بإعدامه . ولكن ليس اقل من الحكم عليه بالنفى المؤبد إن وجبت الشفقة به ، كى يكون مثلا وعبرة ، وما إلى هذا . ثم هو ملحد سافر ، مثل كل هذه الطغمة . وهكذا دائما ثرثرة الأوز عن النسور الجوارح !

ولكن هل كان (ج) نسرا حقا ؟ اجل ، إذا نظرنا إلى

ما فى عزلته الضارية من شراسة . ولكن السبب فى عـدم تعقبه بأى عقوبة راجع إلى انه لم يصوت لإعـدام الأسرة المالكة ، ولذا لم يدرج اسمه فى قائمة المحكوم عليهم بالنفى ، وهكذا بقى فى فرنسا . ولكنه نفى نفسه بنفسه عن مجتمع الناس .

كان يقطن على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من المدينة ، بعيدا عن كل النجوع ، وعن كل الطرق والدروب ، فى ثنية منعزلة مجهولة من واد جبلى موحش . ويقال إن له هنـاك حقلا ، وجحرا يدعوه عرينه ، بلا جيران ، بل ولا يمر به احد فى غدو أو رواح . ومنذ نزل هذه البقعة طمس العشب الدرب المفضى إليها ، وكان الناس يتحدثون عن منزله بمثل الرعب الذى يتحدثون به عن بيت الجلاد !

وبينما كان الأسقف يفكر وهو يتطلع بين الحين والحين إلى الأفق من حوله ، ويرى موضعا نبتت فيـه أجمـة من الأشجار ، هى العـلامة المميزة للوادى الذى يقطنه هـذا الميثاقى ، جعل يقول فى نفسه : « هناك ولا شك تعيش نفس فى عزلة ووحشة ! » .

وكان يضيف إلى هذا فى اعماق فكره : « إنى إذن مدين له بالزيارة ! » .

ولكن لنعترف ان هذه الفكرة ، التى كانت لأول وهلة طبيعية جدا ، بدت له بعد لحظة تفـكير ، وكأنهـا غريبـة ومستحيلة ، بل تكاد تكون منفرة ، لأنه فى اعماق نفسه كان يشارك الناس انطباعهم العام ، وكان هذا الميثاقى يوحى

إليه ــ من غير ان يشعر بذلك شـعورا واضـحا ــ بذلك الإحساس الذى يتاخم الكراهية ، وتعبر عنه خير تعبير كلمة « التباعد » . ولكن أيليق بالراعى ان يتراجع امام داء الجرب فى الشـاة ؟ كلا ! ولكن يالها من شاة !

ومع هذا ظل الأسقف الطيب متحيرا، وكان يمضى احيانا فى هذا الاتجاه ، ثم ينكص على عقبيه . واخيرا شـارع فى المدينة ان راعيا صغير السن كان يقوم على خدمة هذا الميثاقى (جـ) فى مأواه قد هبط إلى المدينة ليأخذ إليه طبيبا ، وان ذلك الوغد المسن على شفا الموت ، لأن الشلل حاق به ، وانه لا ينتظر له أن يعيش حتى صباح الغد . وعلق بعضهم على هذا بقوله :

ــ الحمد لله !

ولم يتردد الأسقف . تناول عصـاه ، ولبس معطفه ــ لأن « رستاميته » كانت بالية بعض الشىء كما قلنا آنفا ــ وأيضا لأن ريح الليل لن تلبث أن تهب ، وتوكل على الله .

وكانت الشمس قد جنحت للمغيب وكادت تمس حافة الأفق ، عندما وصل الأسقف إلى المكان المنبوذ من رحمة الله والكنيسة . واكتشف انه صار قريبا من الوجد ، فخفق قلبه، واجتاز خندقا ، ثم سياجا ، ودخل إلى فناء خرب ، وخطا عدة خطوات وهو يستجمع شجاعته ، وفجأة ، فى اقصى الأرض البور ، وراء اعشاب برية طويلة ، لمح المفارة !

وكانت هذه المغارة عبارة عن كوخ منخفض جدا ، فقير جدا ، وصغير ولكنه نظيف ، وقد ثبتت لى واجهته بمسمار تكعيبية عنب . وامام الباب ، فى كرسى عتيق ركبت له عجلات

ويشبه مقاعد الفلاحين ، جلس رجل ابيض الشعر يبتسم للشمس . وبالقرب من الشيخ الجالس وقف صـــبى ، هو الراعى الصغير ، يقدم للشيخ كوزا من اللبن .

وفيما كان الأسقف ينظر ، رفع الشيخ صوته قائلا للصبى : « شكرا . لم اعد بحاجة إلى شىء » .

وتحولت ابتسامته عن الشمس واســتقرت على ذلك الغلام الصغير . وتقدم منه الأسقف ، فالتفت الشيخ عنـد سماع وقع خطاه ، وارتسمت على محياه كل علائم الدهشة التى يمكن أن ترتسم على وجه عاش طويلا فى عزلة تامة ، وقال : « منذ حللت بهذا المكان ، هذه اول مرة يدخل فيها إنسان بيتى . من انت يا سيدى ؟ » .

فاجابه الأسقف : « اسمى بينفينى ميرييل » .

— بينفينى ميرييل . لقد سمعت هذا الاسم يذكر أمامى . اهو انت من يسميه الناس سيدنا بينفينى ؟

— هذا انا !

فاستطرد الشيخ بنصف ابتسامة : « انت اسقفى ؟ » .

— إلى حد ما ...

— ادخل يا سيدى .

وبسط الميثاقى يده إلى الأسقف ، ولكن الاســقف لم يتناولها . واكتفى بقوله : « انا مسرور إذ ارى ما قيل لى غير صحيح ، فانت يقينا لا تبدو لى مريضا » .

فقال الشيخ : « سيدى .. إنى ســأموت بعد ثلاث ساعات ! » .

ثم استطرد بعد برهة صمت : « انا على معرفة بشىء من الطب . واعرف كيف تحين الساعة الأخيرة . فبالأمس لم تكن البرودة سارية إلا فى قدمى . واليوم سرت البرودة منهما إلى ركبتى . والآن أحس انها صعدت إلى الخاصرة . وعندما تصل الى القلب سيتوقف . الشمس جميلة ، أليس كذلك ! لقد جعلت الغلام يدفع مقعدى إلى الخارج كى القى نظرة اخيرة على الأشياء . وفى وسعك أن تكلمنى . فهذا لا يتعبنى. وقد صنعت خيرا إذ حضرت لترى رجلا يموت . فمن الخير أن يكون لهذه اللحظة شهود . وكانت امنيتى أن اظل حيا إلى طلوع الفجر ، ولكنى أعرف اننى لن أعيش اكثـر من ثلاث ساعات . وسيكون الليل مخيما . ولكن ما قيمة هذا ؟ فالنهاية امر غاية فى البساطة ، ولسنا بحاجة إلى الصباح كى ننتهى من الحياة . ليكن إذن . سأموت فى ضوء النجوم اللامعة ! » .

والتفت الشيخ إلى الراعى الصغير وقال : « اذهب انت ونم . فقد سهرت طول الليلة الماضية . وانت مجهد » .

ودخل الغلام الصغير إلى الكوخ . وتبعه الشيخ بعينيه ثم قال كمن يحدث نفسه : « بينما ينام هو ســأموت انا ، فالإغفاءتان يمكن ان تتجاورا » .

ولم يشعر الأسقف بتأثر كما كان يتوقع ، لانه لم يحس روح الله فى هذه الميتة . ولنقل الحق كله : لقد كان الأسقف يشعر بصدمة لانه لا يخاطبه « يا سيدنا » ، وكاد يرد عليه بقوله : ايها المواطن . ومع هذا شعر بأن هـذا الميثاقى المحتضر كان فى يوم من الأيام من اقـوياء الأرض واصـحاب



إن الأسقف من جهته تحاشى الفضول لما فيه
من شـــبهة الإســـاءة فى نظـــره ..

السلطان فيها، ولعلها أول مرة فى حياة الأسقف شعر فيها بميل إلى الشدة ! .. ومع هذا كان الميثاقى يتأمله بمودة وتواضع ، ولعله تواضع المذعن عندما يدنو اجله ويعلم انه موشك ان يتحول إلى تراب .

ومع أن الأسقف من جهته تحاشى الفضول لما فيه من شبهة الإساءة فى نظره . إلا انه لم يتمالك نفسه من تفحص الميثاقى بانتباه شديد ليس مبعثه التعاطف . فقد كان انطباعه عن اى ميثاقى انه شخص خارج على القانون ، بل ومطرود من قانون الصدقة والرحمة !

اما (ج) فكان هادئا ، منتصب الصـــدر تقريبـــا ، وصوته مجلجل رنان ، فهو من ذلك النمط من أبناء الثمانين الضخام الذين يثيرون دهشة عالم وظائف الأعضاء . وكانت الثورة حافلة بعدد كبير من أولئك الرجال الذين تتناسب قامتهم وقوتهم البدنية مع تلك الحقبة . ولذا يشعر المرء فى ذلك الميثاقى الشيخ بأنه امام رجل صارع المحن . فها هو وهو على وشك النهاية يحتفظ بكل علامات الصحة — وفى نظرته الصافية ، ونبرته الحازمة ، وحركة كتفيه القوية ، ما يناقض الموت ، بحيث يتصور المـــرء ان عزرائيل ملك الموت يتردد امامه ، ويحسب انه اخطأ العنوان ! ومع هذا فهو يعلم انه على شفا الموت ، ولا اعتراض له على هذا ، ففى احتضـــاره حـــرية اختيار ! وساقاه وحدهما لا حراك بهما ، فالظلمة استولت عليه من هذه الناحية . وقدماه ميتتان باردتان ، اما الراس فحى بكل قوة الحياة وتدفقها ، ويبدو فى كامل إشراقه . فكان

(جـ) فى هذه اللحظة الرهيبة يشبه ملك الحكاية الشرقية الذى نصفه العلوى لحم ودم ، ونصفه الأدنى من الرخام !

وكانت على الأرض صخرة ، فجلس الأسقف عليها ، وقال بصوت يشى بالملام : « إنى اهنئك . فانت على كل حال لم تصوت لإعدام الملك ! » .

وبدا كأن الميثاقى لم يفطن للمغزى الضمنى المرير لقوله « على كل حال » وأجابه بلا ابتسام : « لا تبالغ أو تسترسل فى تهنئتى يا سيدى ، فقد صوتت لنهاية الطاغية ! » .

وهكذا واجهت نبرته الصارمة النبرة الملائمة . فسأله الأسقف : « ماذا تعنى ؟ » .

— أردت أن أقول إن الإنسان عليه طاغية جبار هو الجهل . وقد صوتت لنهاية هذا الطاغية ! وهذا الطاغية ، الجهل ، انجب الملكية ، وهى سلطة قائمة على باطل . اما العلم فسلطان قائم على الحقيقة . والإنسان ينبغى الا يحكمه إلا العلم !

فأضاف الأسقف : « والضمير ! ؟ » .

— هما نفس الشىء . فالضمير هو كمية العلم الفطرى فى داخلنا .

واصغى سيدنا بينفينى لهذا الكلام بشىء من الدهشة ، لأنه لغة جديدة على سمعه . واستطرد الميثاقى : « اما عن موت لويس السادس عشر فقد قلت لا ! فلست ارى لنفسى الحق فى قتل إنسان ، ولكن من واجبى استئصال شأفة الشر . لقد صوت لنهاية الطاغية والطغيان ، اى نهاية دعارة المرأة ،

ونهاية استرقاق الإنسان ، ونهاية الظلام والهزال للطفل . وبالتصويت للجمهورية صوت لكل هذا : للإخاء والوئام ، والفجر ! لقد ساعدت على سقوط التحيز والأهواء والأخطاء . وانهيار الأهواء والأخطاء معناه إشراق النور والضياء . لقد أسقطنا العالم القديم ، وبانهيار العالم القديم الذى كان حماة الشقاء ، انبثق للنوع البشرى ينبوع الفرح والبهجة .

فقال الأسقف : « فرح مشوب ! » .

— فى وسعك أن تقول انه فرح مضطرب ، واليوم وقد عاد الماضى الفظيع الذى تسمونه ١٨١٤ ، اختفى الفرح تماما . وأسفاه ! ان العمل لم يتم . هذا ما أوافقك عليه ، فقد قوضنا النظام القديم فى الأحداث ولكننا لم نقض عليه تماما فى عالم الأفكار . فالقضاء على المساوىء لا يكفى ، بل يجب تغيير العرف ، ودخائل النفوس ، ان الطاحونة لم يعد لها وجود ، ولكن الريح لم تزل تهب كما كانت !

— لقد هدمت . والهدم يمكن أن يكون نافعا ، ولكنى أرتاب وأتوجس من الهدم الممزوج بالغضب !

— إن للحق غضبة يا سيدى الأسقف ، وغضبة الحق عنصر من عناصر التقدم . ما علينا ! ومهما قيل فالثورة الفرنسية اكبر خطوة تقدم خطتها البشرية منذ مجىء المسيح . قد تكون ناقصة ، ليكن ! ولكنها جليلة ! لقد حررت كل المغبونين اجتماعيا ، وأرهفت النفوس والأفكار ، وهدأت وانارت ، وافاضت على وجه الأرض موجات دافقة من المدنية! كانت شيئا حسنا . إن الثورة الفرنسية هى تتويج البشرية !

ولم يتمالك الأسقف نفسه فصاح : « هكذا ؟ و ٩٣ ؟ » .

فانتفض الشيخ فوق مقعده فى جـــد رهيب ، وصاح بأعلى صوت يملكه محتضر : « ها أنت تقول ٩٣ ! وكنت انتظر هذه الكلمة . لقد تجمع السحاب خمسة عشر قرنا من الزمان، وإذا به بعد خمسة عشر قرنا ينفجر . وها أنت تحاكم تصف هذا الرعد ! » .

وشعر الأسقف ان هذا الكلام اصاب شيئا فى داخله ونال منه . ومع هذا تماسك وقال : « القاضى ينطق باسم العدالة ، والكاهن ينطق باسم الرحمـــة ، التى هى فـــوق العدل . وليس لقصف الرعد ان يخطىء ؟ » .

ثم اردف وهو يثبت نظره فى الميثاقى : « ولويس السابع عشر ؟ » .

فمد الميثاقى يده وامسك بذراع الأسقف وقال : « لويس السابع عشر ! على من تراك تبكى؟ اعلى الطفل البرىء؟ ليكن إذن ، وانا ابكى عليه معـــك . أم على الطفل الملكى ، ولى العهد ؟ عندئذ اطلب منك مهلة للتفكير . واذكر لك الطفل شقيق « كارتوش » ، وهو أيضا طفل برىء شنقوه فى ميدان (لاجريف) ــ الاعتصاب ــ بباريس حتى الموت ، بلا جريرة على الاطلاق سوى انه شقيق كارتوش . وهذا ليس اقل إيلاما واقل جدارة بالغضب من قتل الطفل حفيد الخامس عشر ، الذى استشهد فى برج (التامبل) بلا جـــريرة على الإطلاق سوى انه كان حفيد لويس الخامس عشر !

فقال الأسقف : « سيدى انا لا احب هذه المقاربة بين الأسماء ! » .

ــ اسمى لويس الخامس عشر وكارتوش ؟ لمن منهما تأسى وإلى من منهما تنضم ؟

وسادت لحظة صمت . وكاد الأســـقف ينـــدم على الحضور ، ومع هذا شعر بهزة غريبة . واستطرد الميثاقى : « آه يا سيدى الكاهن ! أنت لا تحب فجاجة الحق ! اما المسيح فكان يحبها ، لذا أمسك بسوط ونظف الهيكل ، وكان سوطه ناطقا بالغ العنف بالحقيقة . وعندما قال : « تعالوا إلى ايها الصغار وبسطاء القلب ! » . لم يميز بين مراتب ومقامات الأطفال . ولم يكن يضيق بالجمع بين سليل اللص باراباس وسليل الملك هيرود. يا سيدى! إن براءة الطفولة فى حد ذاتها تاج لكل الأطفال يزرى بكل تيجان الملوك ! ولا شأن للطفولة بألقاب السمو الملكى ، لأنها عين السمو الأصيل ، بلا حاجة إلى شعار الملكية !

فقال الأسقف عندئذ بصوت خفيض : « هذا حق ! » . واســـتطرد الميثـــاقى (جـ) : « ولكنى مصر على المضى فى الموضوع . لقد ذكرت اسم لويس السابع عشر ، فلنتفاهم. وتعال لنبكى على كل الأبرياء وعلى كل الشهداء وعلى كل الأطفال ، من العلية كانوا أو من اهل الحضيض . وانا معك فى هذا . ولكن علينا ــ كما قلت لك ــ ان نصعد إلى ما قبل ١٧٩٣ ، ويجب ان نبدأ بذرف دموعنا على من استشهدوا من الأطفال قبل لويس السابع عشر . سأبكى على أطفال الملوك معك ، بشرط ان تبكى معى على أطفال عامة الشعب » .

فقال الأسقف : « إنى ابكى على الجميع » .

فصاح (جـ) : « على قدم المساواة ! وإذا كان لكفة ان ترجح ، فلتكن كفة أبناء الشعب ! فقد طال عليهم جدا تحمل المظالم » .

وساد الصمت مرة اخرى . وكان الميثاقى هو الذى قطعه ، فرفع إحدى يديه وتناول قطعة من لحم خده بين إبهامه وسبابته ، كما يفعل المرء بصورة آلية حين يستجوب ويحكم ، وسأل الأسقف بنظرة طافحة بكل حيوية الاحتضار ، وكأنه ينفجر : « نعم ياسيدى . طال جدا على الشعب معاناة المحن والمظالم . ففيم تاتى اليوم لتسألنى عن لويس السابع عشر ؟ انا لا اعرفك . ومنذ حللت هذا الاقليم وانا اقيم داخل هذا السور وحيدا ، ولم اضع قدمى خارجه مرة واحدة ، ولم ار احدا ، سوى هذا الطفل الذى يساعدنى . اجل إن اسمك وصل إلى سمعى ، واعترف انه ترامى إلى محمود السيرة غير سيىء الصفحة ، ولكن هذا لا يعنى شيئا . فالبارعون من الناس يجيدون إيهام الخلق من سواد هذا الشعب بما يشاءون. وبهذه المناسبة ، انا لم اسمع صوت عجلات مركبتك الفاخرة. ولا اشك انك تركتها وراء هذه الأجمة ، عند تفرع الطريق . اقول لك انى اعرفك ، وقلت لى إنك الأسقف ، ولكن هــذا لا يطلعنى على خلقك ومعدنك . ولذا اكرر عليك سؤالى : من انت ؟ انت اسقف ، اى امير من أمراء الكنيسة ، او واحد من اولئك الرجال المذهبيين ، اصحاب الايرادات الضــخمة والامتيازات الكبيرة الفخمة . فأسقفية (د) معناها خمسة

عشر الف فرنك راتبا ثابتا ، وعشر آلاف فرنك اخرى للنثريات والانتقالات . والمجموع خمسة وعشرون الف فرنك فى السنة. وامثالك لهم مطابخ ، وخدمهم يلبسون الكسى المطرزة ، وطعام أمثالك افخر الطعام ، ويروحون ويغدون وامامهم ووراءهم الحجاب فى مركبة للتشريفة ، واخرى للنزهات وثالثة للجبل ، وتقيم فى قصر باذخ ، كل هذا باسم يسوع المسيح الذى كان يمشى حافى القدمين ! انت أمير من امــراء الكهنوت له قصر وهيلمان وخيول ومائدة فاخرة وكل اطايب الحياة . وتستمتع بها كالآخرين . وكل هذا حسن ولكنه لا يدل على شىء . او لا يدل دلالة على معدنك كانسان ومدى سمو روحك ، بما يتيح لك ان تاتى لتعلم مثلى الحكمــة . فإلى من اتحــدث الآن ؟ ومن عساك تكون بالضبط ؟ » .

فأغضى الأسقف وقال باللاتينية : « دودة من ديدان الارض ! » .

فزمجر الميثاقى : « دودة فى مركبة فارهة ! » .

— فقد جاء دور الميثاقى ليستعلى ، وجاء دور الأسقف ليغضى ويتضع . وقال الأسقف فى عذوبة : « ليكن يا سيدى! ولكن فسر لى كيف تثبت عــربتى الفارهــة التى تجثم وراء الأشجار بخطوتين . وكذلك مائدتى الحافلة بأطايب الطعام ، والخمسة وعشرون الف فرنك التى اتقاضاها كل عــــام ، وقصرى وحجابى .. كيف يثبت هذا كله أن الرحمة ليست فضيلة ، وأن الشفقة ليست واجبــا ، وأن ١٧٩٣ لم يكن بلا رحمة ! ؟ » .

فمر الميثاقى بيده على جبهته ، كانما ليبعد عنه سحابة ، وقال : « قبل ان اجيبك ارجوك ان تصفح عنى ، فقد اخطات الآن يا سيدى . فانت هنا فى دارى ، انت إذن ضيفى ، ومن واجبى مجاملتك والتلطف معك . وحين تناقش افكارى . ينبغى ان اكتفى بالرد على حججك وتفنيدها . وثروتك ومتعك إنما هى مزايا اقف ضدها فى المناظرة ، ولكن حسن الذوق يقتضى منى الا استخدمها . واعدك الا اعود إلى استخدامها .

فقال الاسقف : « اشكرك ! » . واستانف (ج) كلامه :
« ولنعد الآن إلى التفسير الذى طالبتنى به . اين كنا ؟ ماذا كنت تقول لى ؟ أن ١٧٩٣ كانت خلوا من الرحمة ؟ » . فقال الأسقف : اجل خلوا من الرحمة . ما رايك فى « مارا » MARAT وهو يصفق للمقصلة ؟

— وما رايك فى بوسييه ينشد « المجد لله ! » بمناسبة مذابح امر بها الملك ؟

وكان الرد قاسيا ، ولكنه نفذ إلى الصميم كسن السيف الفولاذى . وانتفض الأسقف ، ولم يخطر على باله اى رد ، ولكنه استاء من ذكر بوسييه على هذه الصورة. . وبدأ الميثاقى يلهث ، وقد اصابته ازمة الاحتضار التى تختلط بالانفاس الأخيرة ، فتقطع صوته ، ومع هذا ظلت نظرات عينيه تامة الصفاء ، واستطرد : « لنتكلم برهة اخرى .. إنى يا سيدى ارثى لمصير مارى انطوانيت الارشيدوقة والملكة ، ولكنى أرثى ايضا لتلك المراة من الهيجنوت (البروتستنت) التى كانت فى سنة ١٦٨٥ — تحت حكم لويس العظيم — ترضع طفلها ،

فقيدوها عارية الصدر حتى الخاصرة إلى عمود محرقة ، وابقوا الطفل على مسافة منها ، وكان ثدييها منتفخا باللبن ؛ وقلبها يكاد ينفجر من الكرب ، ولما راى الطفل الجائع هذا الثدى راح يصرخ وقال الجلاد للأم المرضع : « ارتدى ! انكرى عقيدتك ! » وخيرها بذلك بين موت ابنها وموت ضميرها . فماذا تقول فى هذا التعذيب لأم ؟ تذكر هذا جيدا يا سيدى : إن الثورة الفرنسية كانت لها اسبابها . والغضب يستحق المغفرة فى سبيل المستقبل . ونتيجتها عالم افضل . ومن ضرباتها الشديدة الوقع نجمت هدهدة للبشرية . وهذه هى الخلاصة السريعة . فانى أموت .. » .

وكف الميثاقى عن تثبيت نظره فى الأسقف ، واتم فكرته بهذه الكلمات الهادئة : « اجل ! ان وحشية التقدم تسمى ثورة . وعندما تنتهى نكتشف هذا : أن النوع البشرى عومل بفظاظة ، ولكنه دفع للسير إلى الأمام » .

ولم يشك الميثاقى انه استولى تباعا على المعاقل الداخلية للأسقف . معقلا فى إثر معقل ، ولكن بقى مع هذا معقل واحد هو سر مقاومة سيدنا « بينفينى » ، ومنه خرجت هذه العبارة التى لعلها تحمل كل خشونة بداية النقاش : « إن التقدم ينبغى ان يؤمن بالله . والخير ينبغى الا تكون وسيلته كافرة . والملحد قائد ورائد سيىء للنوع البشرى ! » .

ولم يرد ممثل الشعب المسن . بل ارتجف ، ونظر إلى السماء وطفرت إلى مقلتيه دمعة . ولما غصت بها اجفانه سالت الدمعة على وجهه الشاحب ، وقال بصوت خفيض كانه

يخاطب نفسه ، وعينه تائهة فى اعماق السماء : « انت : ايها المثل الأعلى ! انت وحدك الموجود ! » .

فاعترت الأسقف رجفة لا توصف . وبعد لحظة صمت رفع الشيخ اصبعا إلى السماء وقال : « اللامتناهى كائن . إنه هناك ! ولو لم يكن للامتناهى ذات لكانت الذات حدا له ونقصا ، ولما كان لا متناهيا . وبعبارة اخرى لما كان كائنا . ولكنه كائن ، فله إذن ذات . وهذه الذات هى اللامتناهى . هى الله ! » .

وكان المحتضر قد لفظ هذه الكلمات الاخيرة بصوت عال وارتجافة نشوة ، كأنما كان يرى شخصا ما . ولما انتهى من كلامه اغمض عينيه ، وقد انهكه الجهد . وكان واضحا انه عاش فى دقيقة واحدة بضع الساعات التى كانت باقية له . وحلت اللحظة القصوى .

وفهم الأسقف قوله . وها هو الوقت يجرى ، وهو الذى جاء بوصفه كاهنا ، وإذا به ينتقل من اقصى البرودة شيئا فشيئا إلى الانفعال الأقصى ، ونظر إلى عينيه المقفلتين ، وتناول تلك اليد المعروقة الباردة وانحنى على المحتضر وقال : « هذه الساعة هى ساعة الرب . الا ترى انه من المؤسف ان يكون لقاؤنا عبثا ؟ » .

ففتح الميثاقى عينيه ، وانطبعت على محياه قتامة الظلال فى ناظريه وقال ببطء لعله راجع إلى هيبة الروح اكثر من رجوعه إلى هبوط القوى :

ـ سيدى الأسقف ! لقد قضيت حياتى فى التأمل والدرس . وكنت فى الستين عندما نادانى وطنى وكلفنى بالاهتمام بأموره ، فلبيت النداء ، وقد اساء البعض استخدام السلطة ، وحدث تجاوز وجور ، وقد قاومت هذا ، وكان هناك طغيان ، وقد هدمته . وكانت هناك حقوق ومبادىء ، وقد اعتنقتها وناديت بها . وغزيت اراضينا فدافعت عنها، وكانت فرنسا مهددة فعرضت صدرى من دونها ، ولم اكن غنيا ، فانا رجل فقير . وصرت من أسياد الدولة . وكانت اقبية البنك تكاد تنفجر من كثرة ما بداخلها من النقود الذهبية والجواهر والنفائس ، اما انا فكنت اتغدى فى شارع الشجرة الجافة مقابل ٢٢ سنتيما . وساعدت المسحوقين ، ورفعت عن المنكوبين . اجل انى مزقت ستار المذبح ، ولكن لكى اضمد به جراح الوطن . وقد ساعدت دائما وايدت مسيرة النوع البشرى نحو التقدم والنور ، وقاومت احيانا التقدم بلا رحمة. وفى بعض الأحيان حميت خصومى . ففى (الفلاندر) دير للقديسة « كلير » فى (بولييه) انا الذى انقذته فى سنة ١٧٩٣ . وقد اديت واجبى فى حدود قدراتى ، وفعلت ما استطعت من الخير . وبعد ذلك طردت وطوردت وشوهت سمعتى وسخروا منى ولعنونى . ومنذ سنوات طويلة ، وقد اشتعل الراس شيبا ، صار الناس يرون من حقهم احتقارى ولعنى . الناس الذين هم الشعب الذى عشت له ! ولكنى اتقبل هذا ، ولا احقد على احد ، وانا اعيش فى عزلة فرضتها على الكراهية والأحقاد . والآن وانا فى التسعين ، ها انذا اموت . فماذا اتيت تطلب منى ؟

فقال الأسقف : « بركاتك ! » .

وركع أمامه . ولما رفع الأسقف راسه كان الميثاقى قد لفظ أنفاسه .

* * *

ورجع الأسقف إلى بيته غارقا فى أفكار لا علم لأحد بها . وقضى الليلة كلها فى الصلاة ، وفى اليوم التالى حاول بعض الفضوليين ان يحملوه على الكلام عن الميثاقى (جـ) . فاكتفى برفع أصبعه إلى السماء .

وبدءا من هذا اليوم ضاعف حنانه وإخاءه للصغار والتعساء والمرضى . وكانت كل إشارة — كسابق العهد — إلى ذلك « الشيخ الوغد (جـ) » تجعله يغوص فى انشغال بال غريب . ولا يستطيع احد ان يجزم بأن مرور هذه النفس أمام نفسه ، وان انعكاس هذا الضمير الكبير على ضميره التقى لم يكن له أثره فى اقتراب الأسقف من الكمال .

وطبيعى ان هذه « الزيارة الرعوية » كانت مثار لغط لدى الأوساط الفارغة :

— أكان فراش موت هذا المحتضر مكانا ملائما لائقا بوقوف الأسقف عنده ! طبعا لم يكن هناك مجال لتبشيره بالدين ، ولا ينتظر لمثله ارتداد عن كفره . وجميع الثوريين كفرة . فلماذا كان الذهاب إذن ؟ ماذا كان هناك يمكن ان يراه ؟ اللهم إلا حضور الشيطان ليسترد روحه ؟ !

وذات يوم وجهت إليه سيدة عجوز من العلية — تخال نفسها ذكية ساخرة — هذه الغمزة :

— يا سيدنا ! إن الناس يتساءلون متى تحصل نيافتك على « القلنسوة » الحمراء !

(والكردينال يلبس قبعة حمراء . والثوريون يلبسون قلنسوة حمراء) .

فأجابها الأسقف على الفور :

— ياله من لون فظيع . ولكن من حسن الحظ ان من يبغضونه فى « القلانس » يجلونه فى القبعات !

- ١١ -
تحديد واجب

يتعرض المرء للتردى فى الخطأ إذا ما استخلص مما تقدم ان سيدنا بينفينى كان « اسقفا فيلسوفا » او « كاهنا وطنيا » فإن لقاءه ، او لنقل احتكاكه بالميثاقى (جـ) تركت فى نفســـه بالأكثر نوعا من الدهشة جعله اشد رقة وعذوبة . وهــذا كل شىء .

ومع ان سيدنا بينفينى لم يكن رجل سياسة ، الا ان ها هنا مقام ذكر موجز لموقفه من احداث ذلك الحين ، هــذا على فرض انه فكر إطلاقا فى ان يكون له موقف !

لنعد إذن إلى الوراء بضع سنين .

بعد أن رقى سيدنا بفترة إلى كرسى الأسقفية ، جعله الإمبراطور « بارونا » ، مع نخبة اخرى من الاساقفة . وحدث بعدها إلقاء القبض على البابا فى ليلة ٥ — ٦ يوليو ١٨٠٩ ، وبهذه المناسبة استدعاه نابليون لحضور سنودس (مجمع) اساقفة فرنسا وإيطاليا بباريس . وانعقــد هــذا المجمع فى كاتدرائية نوتردام ، وعقد اول جلساته فى ١٥ يونيو ســـنة ١٨١١ ، برئاسة غبطة الكاردينال فيش . وكان ميرييل من بين ٩٥ اسقفا حضروه . ولكنه لم يشهد إلا جلسة واحدة ، وثلاثة او اربعة مؤتمرات خاصة . ولما كان اسقفا ريفيا ، يعيش فى ابروشية جبلية ، فى احضان الطبيعة ، وعن كثب من

العراء ، لذا بدا عليه انه يجلب إلى جد هؤلاء السادة المرفهين بعض بروده ابروشيته. وسرعان ما عاد إلى (د) . ولما سئل عن سبب سرعة عودته ، اجاب : « كنت مصدر ضيق لهم . كأنما آتيهم بالهواء الخارجى إلى قلب القاعة . فأحسوا أننى بمثابة باب مفتوح فى زمهرير الشتاء ! » .

وفى مرة اخرى قال : « وماذا تنتظرون ؟ هؤلاء السادة امراء . وانا لست إلا اسقفا ريفيا ! » .

والواقع انه اثار السخط . ففى ذات مرة كان مدعوا عند احد زملائه بباريس ، فهاله البذخ فى الأثاث والرياش. وصاح مستنكرا : « فى الدنيا جياع كثيرون . وعراة كثيرون يشكون غائلة البرد ! ما اكثر الفقراء ! ما اكثرهم ! » .

ولنقل بهذه المناسبة إن كراهيته للترف لم تكن كراهية ذكية ، لأنها كانت تشمل فى طواياها كراهية الفن . ولكن الترف عند رجال الكنيسة — فيما عدا الاحتفالات الدينية — خطأ كبير ، لانه يكشف عن طبائع ليست رحيمة بفطرتها . والكائن المكتنز يوحى بالتناقض . فمن واجب الكاهن أن يتخذ مكانه مع الفقراء ، وفى صفوفهم ، كى يتسنى له ليل نهار ان يلمس آلامهم واحزانهم وجراحهم ، وعليه ان يشارك فى هذه التعاسة بشخصه . مثلما يكسو الغبار المسافر فى طريق المشقات ! امن الممكن أن نتصور من يعمل عن كثب من أتون من غير ان يشعر بلفح حرارته ؟ ومن غير أن يحترق بعض شعره ، وتسود أظافره ، ويتصبب عرقه ، ويعلو السناج محياه ؟ فأول دليل على الرحمة الحقيقية عند الكاهن ، وعند الأسقف بخاصة ، هو فقره شخصيا .

وهذا بالتاكيد ما كان يعتقده نيافة الأسقف « بيرييل بينفينى » ، ولكن ليس معنى هذا انه كان يدس نفســه فى الخلافات الفكرية فى عصره ، أو يخــوض فى المناقشــات اللاهوتية ، ولا يتعرض لما حدث فيه حل وسط بين الدولة والكنيسة . ولكن بما اننا نرسم صورة امينة للأسقف ، فمن واجبنا ان نذكر انه كان « ثلجيا » فيما يتعلق بنابليون فى ايام افول نجمه . فمنذ سنة ١٨١٣ صار يساند أو يصفق لكل المظاهرات المعادية له . ورفض ان يقابله عند مروره بمدينته فى طريق عــودته من جــزيرة إلبا ، ورفض التصريح بإقامة الصلوات العامة فى كنائس أبروشيته للامبراطور فى فترة حكم المائة يوم .

وكان للأسقف إلى جانب اخته الآنسة باتستين شقيقان احدهما جنرال والآخر محافظ . وكان كثيرا ما يكتب إليهما . واحيانا كان يشتد على الجنرال ، لأنه كان متوليا قيــادة فى الجنوب ، ولما نزل نابليون على شاطىء (كان) ، تعقبــه الجنرال على رأس ١٢٠٠ جندى ، بأسلوب من يريد تهيئة السبل له كى يفلت . اما مراسلاته لأخيه المحافظ السابق فظلت ودية . وكان هذا الأخ منذ تقــاعده يعيش بباريس فى شارع كاسيت .

ونفهم من هذا ان سيدنا كانت له ايضا جوانبه الحزينة المريرة برغم اهتمامه العميق بالأمور الأبدية . ويقينا انه كان الاجدر بمثله الا تكون آراء سياسية . ولكننا لا نعنى بهذه الآراء السياسية تحريم الاهتمام بتقدم البشرية والإيمان بالوطن

والديمقراطية ، وهى الأمور التى صارت لأن لباب كل فكر حر كريم العنصر . ولكننا نريد فقط أن نقول إن سيدنا الأسقف ما كان ينبغى له أن يكون متعصبا للملكية ، كى ينصرف بكليته إلى ما يعلو على الخلافات والشقاقات الضــيقة المتعصــبة العارضة ، ويتوجه بمجموع فكره إلى الأمور الثلاثة العظمى ، وهى الحقيقة والعدل والرحمة .

ومع اعترافنا ان الله لم يخلق ســيدنا بينفينى لمهمة سياسية على الاطلاق ، إلا اننا نفهم ونعجب باحتجاجه باسم الحق والحرية ومعارضته الأدبية ومقاومته الخطرة والعادلة لنابليون فى ذروة استبداده . ولكن ما نعجب به من معـــاداة السلطان الصاعد ، لا ينصرف إلى الشماتة بالسلطان الآفل . فنحن لا نحب المعارك إلا ضد الأقوياء ، لأنها معارك محفوفة بالخطر بعكس المعارك ضد الساقطين . وعلى من لزم الصمت ايام مجد الطاغية ، ولم يوجه إليه أصبع اتهــام ، ان يلزم الصمت أيضا عند سقوطه . فالعدو لأيام النصر هو وحده صاحب الحق الشرعى فى الادانة بعد الهزيمة .

ولكن فيما عدا هذا كان الأسقف عادلا وصالحا فى كل شىء ، وصادقا ، ومنصفا ، وذكيا ومتواضعا وأبيا ومحسنا . كان كاهنا ، وكان حكيما ، وكان إنسانا . بل انه حتى فى موقفه السياسى الذى انحينا عليه فيه باللائمة كان سمحا ومتسامحا . ومن آيات ذلك ان بواب مجلس المدينة كان قد عين هناك بأمر الإمبراطور ، وكان صف ضابط مسنا من الحرس القديم ، وحضر معركة استرلتز ، وبونابرتيا متعصبا . وندت منه اقوال

خطيرة بعد سقوط نابليون وعودة الملكية ، مما يصفه قانون تلك الأيام بانه « إثارة للشقاق الوطنى » . وكان يهزأ علنا من لويس الثامن عشر ويقول عنه : « ليعد بلحيته التى تشبه لحية التيس إلى بروسيا ! » .

وطبعا فصلوه من عمله ، وصار بلا مورد هو وزوجته واولاده ، فاستدعاه الأسقف وانبه بلطف وعينه بوابا للكاتدرائية .

– ١٢ –

عزلة سيدنا بينفينى ومعتقداته

هناك دائما حول كل أسقف كوكبة من صغار القسوس، اشبه بالضباط الشبان الذين يحيطون بكل جنرال . وهؤلاء من سماهم احيانا القديس «فرنسوا دى سال» القسوس الأغرار . وهكذا دائما لكل صاحب منصب من اى نوع حاشية وبطانة وبلاط خاص، طالبا للمنافع وفرص الوصول والترقى. وهكذا كل مطران له أركان حربه . وكل أسقف له بعض النفوذ يحيط به جماعة من صغار الرهبان الشبان تحفظ النظام فى قصر الأسقف ، وتقف للحراسة حوله ، وتتسقط ابتسامة سيدنا الذى بيده مراتب الكهنوت فى ابروشيته .

ولم يكن سيدنا بينفينى بتواضعه وفقره الواضح من هذا القبيل ، وكان هذا واضحا من اختفاء هالة المتملقين من حوله . ولا سيما بعد دعوته من مجمع الأساقفة فى باريس ، وقد عرف الجميع انه لم يصادف لدى الكبار قبولا . وبذلك عاش فى عزلة تامة . وكان كهنته جميعا من المسنين الطيبين الذين لا طموح لهم . فلا سبيل إلى الترقى او التقدم فى ظل هذا الأسقف .

●

واما بخصوص عقيدته فلا يسعنا إلا ان نقف موقف الاحترام . وضمير الرجل الصالح ينبغى أن يكون محل تصديق بمقتضى كلامه . ولكننا فى الوقت نفسه نستطيع ان نتصور الفضيلة تتفتح وتزدهر فى ظلال عقيدة مخالفة لعقيدتنا .

اما ماذا يعتمل فى نفسه عن هــذه المســالة او تلك من مسائل العقيدة ، فهذا شىء لا يمكن ان يعــرف إلا بعد نزول النفس إلى القبر ، لانها هناك فقط تنضو عنهــا كل أرديتها واثوابها . وكل ما تستطيع ان تقطع به الآن انه ما من معضلة من معضلات العقيدة وجدت حلها فى نفسه الطاهرة عن طريق الرياء . فلا يمكن ان يتطرق العفن إلى الألماس ! لقــد كان الأسقف بينفيني يؤمن على اقصى ما فى وسعه من الإيمان . فهو يؤمن بالأب السماوى ضابط الكل . وبهذا كان يصيح احيانا كثيرة ثم ينغمس فى اعمال الخير والبر بأقصى طاقته ، بما يكفى ضميره اليقظ ، فيقول له :

— انت هكذا مع الله !

وينبغى علينــا ان نذكر للأســقف ان محبته كان تفوق إيمانه ، وما كان إيمانه قليلا هينا ! ولذا كان الجادون المتزمتون من الناس يعيبون عليه إفراطه فى المحبة . وكذلك كان يعيبها عليه « العقلاء » و « المتزنون » و « اهل الوقار » ، وهى كلها تعبيرات عصرية يسترون بها انانيتهم المتحذلقة !

وماذا كان هذا الإفراط فى المحبة ؟

كان سماحة مطمئنة تتجاوز البشر ، وتشمل الحيوانات ، بل والجمادات . فهو إنسان يعيش بدون زراية لأحد أو شىء ، فهو متســامح مع كل مخلوقــات الله . وكل شــخص — حتى الأفاضل من الناس — فيه قسوة تصدر بلا روية قد يختص بها الحيوان . اما اسقف (د) . فلم تكن فيه قط هذه القسوة ، التى تشاهد بصفة خاصة مع هذا فى بعض القسوس . اجل إنه لا يذهب إلى درجة البرهمية فى محبــة الحيوان ، ولكنه فيما يبدو تأمل كثيرا هذه الآية من سفر الجامعة :

— من ذا يعرف اين تذهب أرواح الحيوانات ؟

وقبح اشكال الحشرات لم يكن يزعجه او يثير استنكاره . بل يرق له ويتأثر به ، وكأنه يفتش وراء هذا المظهر القبيح او الشائه عن حكمــة خفيفة او علة او تفســير . وفى كثير من الأحيان كان يتوسل إلى الله ان يخفف قصاص المذنبين ، وكان يتأمل ما فى العالم من فوضى بلا غضب ، ويطلب من الله الرحمة والاصلاح . وهذه المشاعر كانت تحمله احيانــا على التفوه بأقوال غريبة . ومن ذلك انه كان ذات يوم فى حديقته . وهو يحسب نفسه بمفرده ، ولكن اخته كانت تسير خلفه من غير ان يراها . وفجأة وقف عن السير ، ونظــر إلى شىء ما فــوق الأرض ، وإذا به عنكبوت ضخم اسود كثيف الشــعر فظيع المنظر ، وسمعته اخته يقول :

— يا للحيوان المسكين ! ليس هذا ذنبه !

ولماذا لا تقال هذه التعبيرات الطفلية شبه الإلهية الدالة على الطيبة ؟ انها من قبيل الطفوليات ، ولكن هذه الطفوليات الجليلة كانت هى بعينهــا افكار وخواطر القديس فرانسوا الأسيسى ، ومرقص اوريليوس ، وقد حدث انه ذات يــوم التوت قدمه التواء شديدا ، وهو يتحاشى ان يدهم بها نملة !

وهكذا كان يعيش هذا الرجل الصالح . كان أحيانا ينام وهو فى الحديقة ، فيزيده ذلك جلالا . ولئن صدق ما قيل عن صدر حياته ، وكيف كان رجلا يفيض فحولة ، دافق الحيوية ، متقد العاطفة سريع الغضــب إلى حــد العنف ، فوداعته الحالية الشاملة لم تكن غريزة طبيعية فيه ، بل هى بالأكثر ثمرة

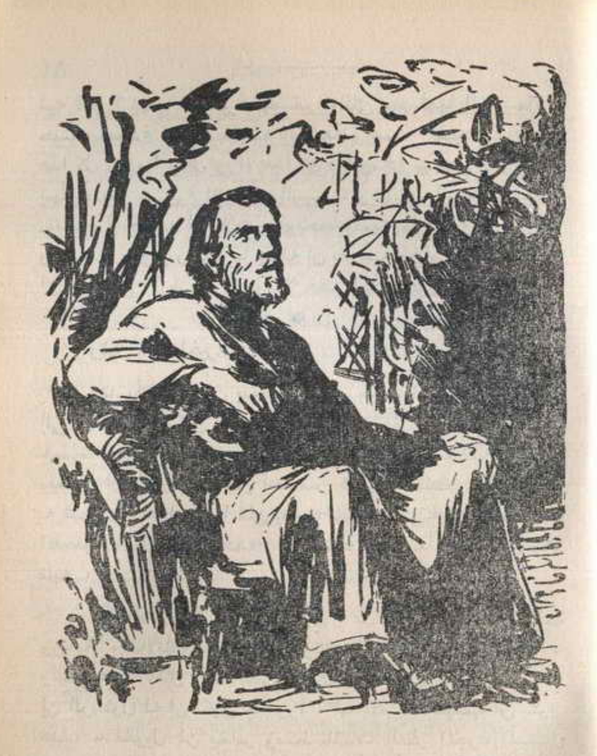
اقتناع عميق ترسب فى قلبه على امتداد حيــاته ، ورسخ فى
أعماقه فكرة بعد فكرة ، ففى الطباع ، كما فى الصخور ، يمكن
أن توجد ثقوب صنعتها قطرات الماء . وهذه الحفر فى الصخر
الصلد لا يمكن محوها ، وأشكالها لا تقبل الفناء .

وفى سنة ١٨١٥ بلغ سن الخامســـة والسبعين ، ولكنه
كان يبدو وكأنه لم يتجاوز الستين . ولم يكن طويل القامة ،
وكان على شىء من الســمنة ، وللقضاء عليهـا كان يسـير
مسافات طويلة على قدميــه . وحين يمشى تكون خطــواته
ثابتة ، ولم يكن فيه انحناء كثير . ولسنا نستخلص من هذا
شيئا ذا أهمية خاصة . لأن جريجوار السادس عشر وهو فى
الثمانين من عمره كان منتصب القامة باسم الثغر ، ولكن ذلك
لم يحل بينه وبين أن يكون أسقفا سيئا ! وكان لسيدنا بينفينى
ما يسميه الناس « رأسا جميلا » ، ولكن سماحة محياه كانت
تنسيهم أنه جميل !

وعندما كان يتحدث بهذا المرح الطفــولى الذى كان من
سماته ، كان الناس يرتاحون إليه ويأنسون بقربه ، إذ يحسون
أن البهجة تشع من كيانه كله . ولونه الأزهر الناضر ، وكل
أسنانه البيضاء التى احتفظ بها كاملة وتفتر عنهــا ابتسامته
العذبة ، كانت تضفى عليه هذه السماحة وذلك اليسر الذى
يجعل الناس تقول عن رجل : إنه طفل طيب ، وعن شيخ إنه
رجل طيب ! وكان هذا ــ كما ذكرنا آنفا ــ هو الأثر التلقائى
الذى تركه فى نابليون . فلأول وهلة يدرك من يراه أنه أمام
رجل طيب فعلا . ولكنك إذا قضيت معه بضع ساعات تبدل

إحساسك ، وطغى على شعورك بطيبته ، شعورك بأنك أمام
رجل مهيب . فله جبهة عريضة جليلة بما يكللها من شعر أبيض
كالثلج ، وفى أوقات التأمل يشع من جبينه نور عجيب . ولكن
هذه المهابة لا تناقض الطيبة بل تنضـــاف إليها وتتوجهـا .
وما أشبه ذلك الاحساس بما تشعر به حين ترى ملكا كريمـا
يبتسم ثم يفتح جناحيه ببطء من غير أن يكف عن الابتســام :
عندئذ تدرك أنك أمام إنسان قوى الروح ولكنه سمح متسامح ،
له فكر بالغ القوة ولكنه بالغ العذوبة !

وكما رأينا ، كان كل يوم من أيام حياته حافلا بالصلاة ،
وإقامة المراسم الدينية ، والصــدقات ، وتعزيــة المنكوبين ،
وزراعة ركن من الأرض ، وواجبات الإخاء ، مع التقشف التام ،
والضيافة ، وإنكــار الذات ، والثقـــة ، والدرس ، والعمل
الدائب . أجل كانت أيامه ملآنة حتى الحافة بالأفكار الطيبة
والأقوال الطيبة والأعمال الطيبة . ولكنها لم تكن لتكمل على
ما يهوى ويحب ، ولو أن الجو البارد أو المطر منعه من قضاء
ساعة أو ساعتين فى حديقته الصغيرة بعد إيواء المرأتين إلى
مخدعيهما . ويبدو أن هذا كان نوعا من الشعائر ــ يتهيأ به
للنوم بالتأمل أمام منظر السماء فى الليل . وأحيانا ــ فى ساعة
متأخرة من الليل ــ إن لم تكن العجــوزان قد نامتا ، كانتا
تسمعان خطاه البطيئة فى مماشى الحديقة . فهو هناك وحده
مع ذاته ، وادعيا ، هادئا ، يتعبد ، وهو يقــارن طمأنينة
نفسه بطمأنينة الأثير ، وقد هزه فى دجى الليل مرأى المجرات
والنجوم ، ومن ورائها أمجاد الله الخفية ، فيفتح نفسه للأفكار
التى تتوافد عليها من المجهول .



وكان يجلس فوق اريكة خشـبية متكئة إلى عريشة عنب هرمة ، ويتطلع إلى النجوم ..

وفى هذه اللحظات يهب قلبه للساعة التى تمنح فيهـا الازاهير شذاها ، فيلوح فؤاده كالشعلة المتالقة فى ظلمة الليل الذى تزينه النجوم ، ويشع نورانية وسط نورانية الخليقـة الكونية ، ولعله ما كان فى تلك اللحظات يستطيع ان يقول ماذا يشعر به وماذا يجول بفكره . وكل ما هناك انه يحس شيئا يطير منه ، وشيئا يتسلل إلى داخله . ويا له من تبادل تعجز عنه الأفهام بين غيابات الروح وغيابات الكون !

كان يفكر فى عظمة المثول بين يدى الله ، وفى الأبديـة المقبلة ، وأسرارها الغريبة . وفى الأبدية الماضية ، واسرارها الأعجب ، وفى كل اللامتناهيات التى تغوص أمام عينيه فى كل اتجاه . ومن غير ان يحاول فهم ما لا سبيل إلى فهمـه ، كان ينظر إليـه . لم يكن يدرس الله ، بل كان مبهورا به . وكان يتأمل تلاقى هذه الذرات العجيبة التى تقدم لنا وجوه المادة ، وتخلق فرديات فى قلب الوحدة الشاملة ، وترسـم نسبا فى الامتداد ، واللامعدود وسط اللامتناهى ، وبالضياء تجلو لنـا هذا الجمال . وتلاقى هذه الذرات دائب العقد والحل . ومن ثم ما نسميه الحياة والموت !

وكان يجلس فوق اريكة خشـبية متكئة إلى عريشـة عنب هرمة ، ويتطلع إلى النجوم من بين تلك الأشجار الضاوية المثمرة . فهذه الحديقة الصغيرة المزدحمة بابنية قبيحة كانت عزيزة عليه جدا ، وكانت فى نظره أكثر من كافية ..

وماذا ينبغى لهذا الشيخ اكثر من هذا ، وهو يقسم وقت فراغه — وما اقله — بين زراعة البستان فى النهار ، والتأمل

فيه ليلا ؟ فهذه الحظيرة الصغيرة التى سقفها السماء ، حسبه لعبادة الله فى خليقته البديعة واعماله المجيدة . أليس هذا كل شىء ! وهل وراء هذا شىء ؟ وماذا يشتهى اكثر منه ؟ إنها حديقة صغيرة للنزهة والسير ، وهى فى الوقت نفسه منفسح لا حد له للتأملات . وتحت قدميه ما يمكنه أن يزرعه ويجنيه ، وفوق رأسه ما يمكنه أن يدرسه ويتأمل فيه ! بضعة ازاهير على الأرض ، ونجوم لا حصر لها فى عنان السماء !

●

وثمة كلمة اخيرة .

وقد يذهب الظن ببعض الناس — فى ضوء ما ذكرناه — إلى ان الأسقف كان ذا فلسفة خاصة ، على غرار ما يشهد عصرنا من فلسفات تنمو لدى أهل العزلة والاعتكاف والتأمل . وينبغى ان نقول إنه ما من احد ممن عرفوا الأسقف بينفيني ظن به شيئا من هذا . فما كان يضىء نفسه ليس عقله او فلسفته الذهنية ، بل قلبه وحده . وحكمته جمعا ، مصدرها انوار قلبه .

فهو ليس رجل مذهب فكرى ، بل رجل اعمال بر ومحبة ورحمة . فالأفكار المجردة تؤدى إلى الدوار الشطحات . وليس هناك دليل واحد على انه عامر بفكره فى هذه الظلمات . إن الرسول له ان يكون جسورا ، اما الأسقف فيجب ان يكون هيابا . فالويل لمن يغامر وسط ظلمات الفكر المجرد المستقل بنفسه !

إن عباقرة الإيمان يرفعون افكارهم إلى الله ، فتكون

صلاتهم مناقشة فكرية أحيانا . وتكون توسلاتهم اسئلة . وهذا هو الدين المباشر ، الحافل بالقلق والمسئولية . وقد يكون هناك أناس يرتفعون فوق المستوى العادى ويلمحون وراء الظواهر ذرى المنطق ، بحيث تحيط ابصارهم بآماد الجبل المترامى بغير حدود . هؤلاء قلة من العباقرة . ولكن أسقفنا لم يكن منهم . فهو يفرق فزعا من مهاوى الجنون التى يمكن ان يطل على شفاها امثال « سويد نبرج » و « بسكال » . وما من شك ان هذه الشطحات القوية لها منافعها المعنوية والخلقية ، وعن هذا الطريق يمكن الوصول إلى الكمال المثالى . اما هو فلم يكن من هؤلاء ، ولا يسلك دروبهم ، بل يسلك الدرب القصير ، أقصر الدروب واوثقها ، الا وهو الإنجيل .

لذا لم يكن يلقى اى ضوء مستقبلى على ظلمات الأحداث ، ولم يحاول قط أن يكثف اضواء الأشياء ليجعل منها شعلة . لم يكن فيه شىء من النبى ، ولا شىء من المجوسى . فهذه النفس المتواضعة كان لها هم واحد : الا وهو المحبة .

وممكن جدا أن يتسامى بصلاته إلى آفاق ومطامح فوق البشرية ، ولكنه لم يكن يسأل الله إلا المزيد من القدرة على المحبة . وكان يحنو على من يئن ويتوجع ، ويبدو له الكون كله كما لو كان مرضا هائلا . وأحيانا كان يشعر بالحمى تجتاح كل شىء ، فيحاول التخفيف من الآلام من غير أن يحاول الكشف عن اللغز . فأدواء العالم كانت تملأه بالحنان والرفق ، وكان كل اهتمامه منصرفا إلى معرفة خير الطرق للتسرية عن المنكوبين والحزانى . وكل ما فى الموجود فى نظره موضوع للعطفه والحدب والرحمة .

ولئن كان هناك من يشتغلون باستخراج الذهب ، فقد كان هو مشغولا ومشتغلا ليل نهار باستخراج الرحمة . وكانت التعاسة الكونية الشاملة منجمه الكبير . فكل مذهبه يتلخص فى هذه الآية :

« احبوا بعضكم بعضا » .

وذات يوم قال له ذلك الكونت عضو مجلس الشيوخ الذى يدعو نفسه فيلسوفا : « الا ترى هذا العالم ؟ الجميع فى حرب ضد الجميع . والأقوى هو الأذكى . وقولكم : « احبوا بعضكم بعضا » إن هو إلا حديث خرافة وسخف ! » . فأجابه الأسقف بدون ملاحاة او مجادلة : « إن كانت هذه خزعبلة ، فعلى الروح أن تنغلق داخلها كما تنغلق اللؤلؤة داخل صدفتها ! » .

وهكذا كان يفعل الأسقف . فهو حبيس الصدفة ، لأنه كان لؤلؤة المحبة والرحمة ... فهو لا يناقش الغاز الوجود ، بل يشاهدها من الخارج ، ولا يسمح لها ببلبلة فكره !

الكتاب الثانى

العـــــــثرة

- ١ -
مساء يوم انقضى فى السير

فى أوائل شهر اكتوبر سنة ١٨١٥ ، قبل غروب الشمس بحوالى ساعة ، دخل مدينة (د) الصغيرة رجل كان مسافرا على قدميه . ونظر السكان القليلون جدا الذين كانوا فى هذه اللحظة مطلين من نوافذهم او واقفين على عتبات دورهم إلى هذا المسافر بشىء من القلق . فمن العسير ان تلقى عابر سبيل تدل مظاهره على بؤس اشد من بؤسه . وكان رجلا متوسط القامة ، ربعة عريض الأكتاف قوى البنية ، فى عنفوان العمر . وكانت تغطى جانبا من وجهه قلنسوة ذات طنف امامى من الجلد ، ووجهه محترق بفعل الشمس والهواء اللافح ويتصبب منه العرق . وقميصه المصنوع من قماش اصفر خشن مثبت حول العنق بهلب من الفضة يكشف عن صدره الكثيف الشعر . ويتدلى من عنقه رباط عنق تحول إلى حبل مفتول وسرواله من قماش قطنى أزرق ، رث وبال ، ابيض عند إحدى ركبتيه، وثقب عند ركبته الأخرى، وله سترة عتيقة رمادية مهلهلة . حيكت بالدوبارة عند احد كوعيه بقطعة من قماش اخضر ، وفوق ظهره غرارة جندى شديد الامتلاء . محكمة الإغلاق والربط ، جديدة تماما ، وفى يده عكاز ضخم كثير العقد ، وقدماه بلا جورب ، فى حذاءين لهما مسامير من الحديد ، وراسه مجزوز ولحيته طويلة .

وكان العرق ، والحرارة ، والرحلة على الأقدام ، والتراب ، تضيف كلها جوا من القذارة المنفرة إلى هذا المظهر الرث . ومع ان شعره كان مجزوزا . إلا انه شائك ، لأنه كان قد بدا ينبت ، وواضح انه لم يعرف القص منذ امد طويل .

ولم يكن احد يعرفه ، فما هو إلا عابر سبيل . من اين اتى ؟ من الجنوب . وربما كان قادما من شاطىء البحر ، لأنه دخل مدينة (د) من عين الشارع الذى شهد قبل ذلك بسبعة اشهر مرور الإمبراطور نابليون ، وهو ذاهب من كان إلى باريس . ولا بد أن هذا الرجل ظل ماشيا طيلة نهاره ذاك ، فقد كان بادى التعب . وقد راته نساء الحى القديم القائم اسفل المدينة يقف تحت اشجار شارع (جاسندى) ويشرب من الينبوع الذى فى نهاية المشى . ولا بد انه كان عطشانا جدا ، لأن اطفالا راوه — وهم يتبعونه — يقف مرة اخرى ويشرب بعد مسيرة مائتى خطوة من نبع فى ميدان السوق .

ولما وصل إلى ركن بشارع (بواشيفير) دار إلى اليسار واتجه صوب مقر عمدة المدينة فدخله ، ثم خرج بعد ربع ساعة . وكان شرطى جالسا قرب الباب على مقعد من الحجر، فخلع الرجل قلنسوته وحيا ذلك الشرطى باتضاع . ولم يرد الشرطى تحيته ، بل رمقه بنظرة يقظة ، وتبعه بنظراته برهة من الوقت ، ثم دخل مقر الحكومة .

وكان فى مدينة (د) فى ذلك الحين مطعم وخان يحمل لافتة (صليب كولبا) . وكان صاحب هذا الخان رجل يسمى

« جاك لابار » ، وهو رجل له اعتبــاره فى المدينة لقرابته من لابار آخر يملك فى مدينة جرينو بل خان (أولياء العهد الثلاثة) وكان قد خدم فى كتيبة المرشدين . وعنــدما نزل الإمبراطور إلى البر ، سرت إشاعة فى الإقليم عن خان أولياء العهد الثلاثة هذا ، وقيل إن الجنرال برتران نزل به عدة مرات متنكرا فى زى صاحب عربة نقل . فى شهر يناير ، وانه وزع اوســمة على الجنود وجنيهات ذهبية على اهل الطبقة الوسطى . والواقع ان الإمبراطور عنـد دخوله جرينوبل رفض النـزول فى قصر المحافظة ، وشكر العمدة قائلا له : « بل سأذهب للنزول عند رجل شهم أعرفه » .

وتوجه إلى خان اولياء العهد الثلاثة . وقد انعكست هذه المفخرة للمسيو لابار صاحب خان « أولياء العهد الثلاثة » على مبعـدة خمسة وعشرين فرسخا على قريبه لابار الآخر صاحب خان « صليب كولبا » ، فكان يقال عنه فى المدينة : « إنه ابن عم « لا بار » (جرنوبل) » .

واتجه الرجل صوب هذا الخان ، الذى كان افضل نزل ومطعم فى الناحية ، ودخل المطبخ الذى كان بابه مفتوحا على الشارع مباشرة ، فإذا جميع الأفران والمواقد مشتعلة ، ونار عظيمة تتأجج بمرح فى المدفأة . وكان رب الخان هو نفســه الطاهى يتنقل بين الأوانى منهمكا فى مراقبة عشاء فاخر يعد لحفنة من مدحرجى البراميل كان ضحكهم يدوى بصــخب فى القاعة المجاورة ، وكل من سافر فى هذه النواحى يعــرف ان هذه الفئة من احسن الناس بذخا فى طعامهم . لذا كان الطباخ

يطهو شواء شهيا من طيور واسماك كبيرة من صيد بحيرة الوز وبحيرة لوزيه .

ولما سمع صاحب الخان الباب يفتح ويدخل منه قـادم جديد ، قال من غير أن يلتفت او يرفع عينيه عن افرانه :

— ماذا يريد السيد ؟

فقال الرجل :

— أن آكل وأنام .

فقال صاحب المنزل :

— لا شيء اسهل من هذا .

وفى هذه اللحظة ادار راسه ، وشمل هذا المسافر بنظرة خاطفة واردف :

— بشرط ان تدفع الثمن .

فاخرج المســافر كيس نقود من الجلد من جيب سترته وقال :

— معى نقود .

فقال الرجل :

— فى هذه الحالة . نحن فى خدمتك .

فوضع الرجل كيسه فى جيبه ، وانزل كيسه عن كتفه . فوضعه على الأرض قرب الباب ، واحتفظ بعصاه الغليظة فى يده وذهب فجلس فوق كرسى مطبخ منخفض قرب النـــار ، لأن (د) تقع فى منطقة الجبال ، وامسيات اكتوبر باردة .

ومع هذا ظل صاحب النزل فى غدوه ورواحه يختلس النظر إلى المسافر .

وسأله الرجل :

ــ هل سنتعشى قريبا ؟

فقال رب النزل :

ــ حالا .

وبينما كان القادم الجديد يستدفىء وظهره إلى صاحب النزل ، اخرج المسيو لابار المحترم قلم رصـــاص من جيبه ، وقطع قصاصة من صحيفة قديمة كانت على إحـــدى الموائد قرب النافذة ، وعلى الهامش الأبيض كتب بضع كلمات وطوى القصاصة من غير ان يقفلها واعطاها لطفل يبدو انه يعمل عنده صبيا فى المطبخ وخادما فى الوقت نفسه ، وهمس صاحب النزل بكلمة فى اذن المرمطون الصغير ، فأسرع هذا الطفل يجرى فى اتجاه مقر العمدة .

ولم يكن المسافر قد فطن إلى شىء من هـــذا كله . ولم يلبث أن سأل مرة اخرى :

ــ هل سنتعشى قريبا ؟

ــ حالا !

عاد الطفل ، أعطى الورقة لرب النزل الذى بسطها فى لهفة ، شأن من ينتظر ردا ، وبدا عليه الاهتمام بما يقرأ ، ثم هز راسه وظل برهة يفكر ، واخيرا تقدم خطوة من المسافر الذى كان باديا عليه الاستغراق فى خواطر غير سعيدة ، وقال له :

ــ سيدى ! ليس فى استطاعتى استقبالك !

فنهض الرجل من مقعده بعض الشىء ، وقال :

ــ كيف اتخشى الا ادفع ؟ اتريد منى ان انقـــدك الثمن مقدما ؟ معى نقود ، قلت لك .

ــ ليس الأمر هكذا .

ــ ما هو إذن ؟

ــ انت معك نقود .

فقال الرجل :

ــ اجل .

فقال رب النزل :

ــ انا ليس عندى حجرة .

فقال الرجل بهدوء :

ــ ضعنى فى الإسطبل .

ــ لا استطيع .

ــ لـــماذا ؟

ــ لأن الخيل تحتل المكان كله .

فعاد الرجل يقول :

ــ ليكن ! يكفينى ركن فى مخزن الحبـــوب . حزمة من القش . سندبر هذا بعد العشاء .

ــ ولا استطيع ايضا ان اقدم لك العشاء !

فبدا هذا الاعلان الهادىء الحازم خطير للمسافر الغريب .

ــ عجبا ! ولكنى أكاد اموت جوعا . لقد مشيت على قدمى منذ طلوع الشمس . مشيت خمســـة عشر فرسخا . ومستعد أن ادفع . وأريد أن آكل .

فقال رب النزل :

ــ ليس عندى شىء !

فانفجر الرجل ضــاحكا ، والتفت إلى المدفاة والأفران صائحا :

ــ لا شىء ! وهكذا كله !

ــ هذا كله محجوز .

ــ لمن ؟

ــ للسادة الذين بالداخل .

ــ كم عددهم ؟

ــ اثنا عشر .

ــ ولكن هذا طعام يكفى عشرين !

ــ لقد حجزوا كل شىء ودفعوا الثمن مقدما .

فعاد الرجل للجلوس ، قال من غير أن يرفع صوته :

ــ أنا فى الخان . وجائع . وسأبقى .

فمال رب الخان عندئذ فوق اذنه وقال له بلهجة جعلته يرتجف :

ــ اخرج من هنا !

كان المسافر منحنيا فى هذه اللحظة يدفع بكعب عصــاه الحديدى جمرات متناثرة إلى النار ، فالتفت بحدة ، ولما فتح فاه ليرد على صاحب الخان ، رمقه صاحب الخان بنظرة ثاقبة واردف بنفس الصوت الخفيض :

ــ اسمع ! لا داعى للكلام اكثر من هذا . اتحب ان اقول لك ما اسمك ؟ انك تدعى « جان فلجان » . فهل تريد الآن ان

اقول لك من انت ؟ عنــدما رايتك تدخــل ارتبت بالأمر ، وارسلت إلى مقر العمدة ، وهاك الرد . أتعرف القراءة ؟

ومد إلى الغريب الورقة مبســوطة ، تلك الورقة التى ذهبت من الخان إلى مقر العمدة وعادت من مقر العمدة إلى الخان ، والقى الرجل عليها نظرة . واستطرد رب الخان بعد صمت :

ــ من عادتى أن اكون مهذبا مع كل الناس . أخرج من هنا !

فخفض الرجل راسه ، وحمل كيســه الذى كان قد وضعه على الأرض ، وانصرف .

ومشى فى الشارع الكبير ، ومضى إلى الأمام حيثما اتفق وهو يرمق البيوت بنظرة رجل ذليل حزين ، ولم يلتفت وراءه لحظة واحدة ، ولو كان التفت لكان ابصر صـــاحب خان « صليب كولبا » على عتبـــة بابه ، ومن حوله جميع نزلائه ، وجميع عابرى الســبيل فى هــذا الشــارع ، يتكلمون بحدة ويشــيرون إليــه بأصابعهم . ولكان أدرك من نظرات الهلع والتوجس أن وصوله إلى المدينة سيكون حدث ذلك اليــوم الذى يدور على جميع الألسنة .

لم ير شيئا من هذا كله ، فالمهمومون من الناس لا يلتفتون وراءهم . ولكنهم موقنــون أن النحس يمشى فى ركابهم اينمــا حلوا .

وظل ماشيا على هذا النحو فترة من الوقت ، ســالكا الشوارع التى لا معرفة له بها . وقد نسى تعبه ، كما يحدث

فى حالات الهم واليأس . وفجأة احس لذعة الجوع . وها هو الليل يقترب . فتلفت حوله عسى ان يجد لنفســه مأوى او ملاذا .

إن الخان الراقى قد أغلق ابوابه فى وجهه ، فراح يفتش عن حانة متواضعة . ولمح ضوءا يلمع فى نهاية الشــارع ، وغصنا من الصنوبر معلقا من ذراع حديدية ، فاتجه إليــه . وكان بالفعل حانة ، وهى الحانة التى فى شارع (شانو) .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من زجاج النافذة إلى داخل قاعة الحانة المنخفضة التى يضيئها مصباح فوق مائدة ، وبها نار عظيمة فى المدفأة . وهناك بضعة رجال يشربون الخمر ، ورب الحانة يستدفىء ، والنــار تغلى فوقهــا قدر من الحديد الأبيض .

ولهذه الحانة – التى هى ايضا خان – بابان . احدهما مطل على الشــارع ، والآخــر يفضى إلى فناء صغير غاص بالسماد العفن .

ولم يجسر المســافر على الدخول من باب الشــارع ، فتسلل إلى الفناء ، وتوقف قليلا ، ثم رفع اكرة البــاب على استحياء ودفع الباب . فقال رب الحانة :

– من هناك ؟

– شخص يريد أن يتعشى وينام !

– هذا حسن . الناس هنا يتعشون وينامون .

فدخل ، والتفت إليه كل الجالسين للشراب ، وســقط نور المصباح على احد جنبيه ، واضاءت نار المدفــأة جانبه

الآخر وتفحصته العيون برهة بينما هو ينزل كيسه عن كاهله . وقال رب الخان :

– هاك النار ، والعشــاء ينضج فى القــدر . اقترب واستدفىء يا رفيق .

فمشى وجلس قرب الموقد، ومد إلى النار قدميه المنهكتين من التعب ، وكانت رائحة طيبة تفوح من القدر . وكل ما تسنى للرجال مشاهدته من تحت قلنســوته ذات الطنف هو علائم الصحة التى تمتزج بأمارات المعاناة .

إلا انه كان سحنة جانبية حازمة ، قوية ، تفيض اسى . فقد كان تركيبه الجسمى غريب التكوين ، فهو فى البداية يوحى بالتواضع ، ولكنه فى النهاية يدل على القســوة . وعينــاه تتألقان تحت حاجبيه الكثين ، مثلما تأتلق النار تحت العوسج .

ولكن احد هؤلاء الرجال الجالسين كان صياد ســمك وكان قبل دخوله الحانة فى شارع (شانو) قد توجه لإيــداع حصانه فى حظيرة لابار . وتشاء الصدفة أن يكون فى صــباح هذا اليوم نفسه قد قابل هذا الرجل الغريب السيىء المنظر ماشيا بين براداس و ... اسكوبلون على ما اظن . ولمــا قابله هذا الرجل الهادى كان يبدو حينئذ مجهدا طلب منه أن يردفه على حصانه ، ولم يرد عليه صياد السمك إلا بالاسراع فى طريقه مبتعدا عنه . وهذا الصياد ايضا كان قبل نصف ساعة ضمن المجموعة التى احاطت بجاكان لابــار ، وروى لهم بنفســه فى خان « صليب كولبا » مقابلته الصباحية مع ذلك المسافر الغريب ، واشار صياد الســمك وهو فى مكانه إلى

صاحب الحـــانة ، فجاء إليه وتبادلا بضع كلمات بصـــوت منخفض ، وكان الرجل قد استغرق فى خواطره .

واقبل رب الحانة إلى المدفاة ، ووضع يده فجــاة على كتف الرجل وقال له :

ـ ستخرج من هنا !

فالتفت إليه الغريب وأجابه بعذوبة :

ـ آه ! هل عرفت ؟

ـ نعم !

ـ لقد طردت من الخان الآخر .

ـ ونحن نطردك من هنا ايضا .

ـ واين تريدنى أن اذهب ؟

ـ إلى مكان آخر ..

فتناول الرجل عصاه وكيسه وانصرف .

وعند خروجه وجــد غلمانا كانوا قد تبعوه من « صليب كولبا » ويبدو انهم كانوا فى انتظاره ، فرشـقوه بالحجارة ، فنكص على عقبيه فى غضب وهددهم بعصاه الغليظة ، فتفرق الصغار كسرب من العصافير .

ومر من أمام باب السجن ، وعلى الباب سلسلة متصلة بناقوس ، فرن هذا الناقوس ، وفتحت كوة فى الباب ، وقال الرجل وهو ينزع قلنسوته باحترام :

ـ يا سيدى البواب ! هلا فتحت لى الباب وآوتينى هذه الليلة ؟

فنكص على عقبيه فى غضب وهـــددهم بعصـــاه الغليظة ، فتفرق الصغار كسرب من العصافير ..

واجابه صوت :

— السجن ليس نزلا . دعهم يقبضوا عليك اولا ، وعندئذ ينفتح لك هذا الباب !

واغلقت الكوة .

ودخل شارعا صغيرا ، فيه حدائق كثيرة ، وبعضها ليس مسورا إلا بحشائش وشجيرات ، فاضفى ذلك على الشارع الصغير بهجة . ومن بين هذه الحدائق والأسوار النباتية ابصر بيتا صغيرا من طابق واحد كانت نافذته مضيئة، فنظر من خلال زجاجها مثلما فعل فى الحانة ، فاذا حجرة كبيرة مطلية بالجير، وبها فراش عليه مفرش من الحرير الهندى المطبوع ، وبندقية ذات فوهتين معلقة على الحائط، وفى الركن مهد ، وفى الوسط بضع مقاعد من الخشب ومنضدة عليها الوان من الطعام . ومصباح من النحاس الأصفر يضىء المفرش الأبيض الغليظ ، وفوق المفرش إبريق من القصدير اللامع كالفضة ملآن بالنبيذ ، وبجواره وعاء الحساء البنى يتصاعد منه الدخان . وقد جلس إلى هذه المائدة رجل فى نحو الاربعين من عمره ، وجهه طلق مبتهج ، يلاعب طفلا صغيرا فوق ركبتيه . وبقربه امراة حديثة السن ترضع طفلا آخر . والأب كان يضحك ، والطفل كان يضحك والأم كانت تبتسم .

ولبث الغريب برهة كالحالم أمام هذا المشهد العذب الهادىء المهدىء . فماذا تراه كان يعتمل فى داخله ؟ هو وحده الذى يملك الإجابة عن هذا السؤال . ولعله ظن ان هذا البيت السعيد بيت مضياف ، وانه ها هنا حيث راى كل هذه السعادة ، لعله خليق ان يجد ايضا شيئا من الرحمة ..

وطرق زجاج النافذة طرقة خفيفة جدا . فلم تسمع .

وطرق مرة اخرى .

وسمع المراة تقول :

— يبدو لى — يا زوجى — أنى سمعت طرقا .

فأجابها الزوج :

— لا .

وطرق مرة ثالثة .

ونهض الزوج ، واخذ المصباح واتجه إلى الباب ففتحه .

وكان رجلا طويل القامة ، نصفه فلاح ، ونصفه صانع . فهو يلبس مرولة واسعة من الجلد ترتفع إلى كتفه الأيسر ، وتطل منها مطرقة صغيرة ومنديل أحمر ووعاء ذرور وكل ما يمكن للحزام ان يحمله عوضا عن الجيب ، ومال براسه إلى الخلف ، فكشف قميصه عن عنقه الذى يشبه عنق الثور ، ولكنه أبيض اللون ، وله حاجبان كثيفان ، وسالفان غزيران اسودان ، ونصف وجهه الأسفل اشبه بخطم حيوان أو دابة، ولكنه مع هذا يبدو مسترخيا شأن الرجل المخلد للراحة فى بيته .

وقال له الغريب :

— عفول يا سيدى . أفى إمكانك — إذا دفعت المقابل — ان تقدم لى صفحة حساء وركنا ابيت فيه فى ذلك المخزن الذى اراه بالحديقة ؟ قل . امكن هذا ... إذا دفعت الثمن ؟

فساله رب الدار :

— من انت ؟

فأجابه الرجل :

— إنى قادم من بوى مواسون . وقد مشيت طول النهار . فقطعت اثنى عشر فرسخا . أممكن هذا الذى طلبته ؟ إذا دفعت ؟

فقال الفلاح :

— انا لا ارفض إيواء شخص يدفع الأجر ، ولكن لماذا لا تذهب إلى الخان ؟

— ليس به مكان .

— هذا غير ممكن ! فليس اليوم يوم سوق ولا يوم مولد . اذهبت إلى لابار ؟

— نعم .

— ثم ماذا ؟

فأجابه المسافر فى حرج :

— لا ادرى . لقد ابى قبولى .

— هل ذهبت إلى الحانة فى شارع شافو ؟

فازداد حرج الغريب ، وغمغم :

— لم يقبلنى هو ايضا .

فاكتسى وجه الفلاح بسوء الظن ، وتفحص القادم الطارىء من قمة الراس إلى اخمص القدم ، وفجاة صاح بما يشبه الانتفاضة :

— العلك ذلك الرجل الذى ... ؟

والقى نظرة أخرى على الغريب ، وتراجع إلى الخلف ثلاث خطوات ، ووضع المصباح على المائدة ، وتناول بندقية من على الحائط .

وكانت المرأة قد نهضت عند سماع زوجها يسأله :

— العلك ذلك الرجل الذى ... ؟

واخذت طفليها بين ذراعيها واسرعت بالتوارى وراء زوجها ، وهى ترمق الغريب بفزع ، عارية النحر ، والارتياع يطل من عينيها ...

وحدث كل هذا فى زمن اقصر مما تتصور ، وبعد ان تفحص رب البيت الرجل الغريب كمن يتفحص حية رقطاء ، عاد إلى الباب ، وقال له :

— انصرف !

فقال الرجل :

— بحق الرحمة ، اعطنى جرعة ماء !

فقال الفلاح :

— بل طلقة بندقية !

ثم أغلق الباب بعنف ، وسمعه الرجل يغلق الباب من الداخل بمتراسين غليظين . وبعد لحظة أغلقت النافذة بالمصاريع الخشبية ، وسمع صوت قضبان حديدية توضع وراء المصاريع .

وواصل الليل سدوله ، وبدأت رياح الألب الباردة فى الهبوب . وفى ضوء النهار الآفل لمح الغريب فى إحدى الحدائق التى تحاذى الشارع كوخا صغيرا منخفضا خيل إليه انه مبنى من الطين الذى يكسوه العشب ، فتخطى الغريب حاجزا خشبيا والفى نفسه فى الحديقة . واقترب من الكوخ، فإذا بابه

عبارة عن فتحة منخفضة جدا ، ويشبه إلى حد كبير تلك الأكواخ المرتجلة التى يقيمها عمال إصلاح الطرق على حوافيها ، فظن أنه بالفعل كوخ أحد هؤلاء العمال ، وكان يعانى من الم الجوع والم البرد القارص . وكان قد أذعن للجوع وسلم فيه أمره لله ، ولكن ها هو على الأقل ملاذ من برد الليل . وهذه الأكواخ لا يسكنها اصحابها فى الليل عادة ، بل يقيلون فيها فحسب ، فرقد على بطنه وزحف متسللا إلى الداخل ، فإذا داخله دافىء ، ووجد فيه فراشا جيدا من القش . وظل برهة مضطجعا فوق هذا الفراش ، لا يقوى على الحراك من شدة التعب . ثم شعر ان وجود كيسه ـى ظهره يزعجه ، ففكر ان يتخذ منه وسادة ، وراح يفك أحد سيوره الجلدية . وفى هذه اللحظة سمع زمجرة مرعبة ، فرفع عينيه وإذا رأس كلب ضخم يرتسم فى ظل فتحة الكوخ .

لقد كان وجار كلب !

وانقلب هو أيضا شرسا ، وتسلح بعصاه ، واتخذ من كيسه درعا ، وخرج من الوجار وقد زادت التمزقات فى ثيابه الرثة .

وخرج من الحديقة ايضا ، ولكن متقهقرا بظهره ، كى يبعد عنه أنياب الكلب ، وهو يناوره بعصاه فى مهارة فائقة .

وبعد ان اجتاز السياج بصعوبة إلى الشارع ، ألفى نفسه ــ وهو لا يكاد يصدق بالسلامة ــ وحيدا ، بلا مأوى ، ولا سقف ولا ملاذ ، وقد طرد حتى من ذلك الفراش من القش

وذلك الوجار الحقير ، وتهالك فوق حجر وجده هناك وهو يصيح فى غم :

ــ أنا اقل حظا فى الحياة من كلب !

وبعد أن استرد أنفاسه ، نهض واستأنف سيره ، وخرج من المدينة على امل ان يجد شجرة فى حقل يرتمى تحتها يحتمى بغصونها .

وظل سائرا على هذا النحو بعض الوقت ، ورأسه مطأطىء ، إلى أن وجد نفسه بعيدا عن كل مسكن من مساكن البشر ، وعندئذ رفع عينيه ونظر نظرة الباحث فيما حوله . فإذا هو فى حقل ، وامامه هضبة منخفضة مغطاة بالقش والحطب المتخلف عن الحصاد .

وكان الأفق من حوله حالك السواد ، لا من ظلام الليل فحسب . بل بفعل السحب التى أخذت تتراكم منخفضة جدا ، حتى كأنها ستلامس الهضبة ، وهى تملأ آفاق السماء جميعا . ولكن القمر كان وشيك الطلوع ، وينشر ضياء غسقيا جعله يرى تلك السحب كأنها قبة ضاربة إلى البياض ينسكب منها الضوء على أديم الأرض .

وهكذا بدت له الأرض أشد ضياء من السماء ، فأوقع ذلك فى نفسه الرهبة ، وارتسمت الهضبة على الأفق المظلم كالحة مخيفة . ولا شىء فى الحقل او على الهضبة اللهم إلا شجرة شوهاء ، معوجة على بعد خطوات قليلة من المسافر ، زادته شعورا بالوحشة لا بالأمان .

احس أن الطبيعة تطالعه بوجه كالح طافح بالعداء ،

فوقف واجما بضع لحظات ثم استأنف سيره فعاد ادراجه من حيث أتى . وكانت أبواب المدينة قد اغلقت ، ذلك أن مدينة (د) كانت قد عانت الحصار فى زمن الحروب الدينية ، ولم تزل فى سنة ١٨١٥ محاطة بسور قديم ، به أبراج مربعـــة ، تم هدمها بعد ذلك . وتسلل من ثغرة فى الأسوار ، ودخل إلى المدينة .

وكانت الساعة تقارب الثامنة مساء ، ولما كان لا يعرف الشوارع ، فقد مضى فى سيره حيثما اتفق .

وهكذا وصل إلى مبنى المحافظة ، ثم إلى دير مدرسة اللاهوت الصغيرة ، وعند مروره على ميدان الكاتدرائية هز قبضة يده نحوها .

وفى ركن من هــذا الميدان مطبعة ، وفى هــذه المطبعة طبعت لأول مرة نداءات الإمبراطور والحرس الإمبراطورى إلى الجيش لينضم إليه عند حضوره من جزيرة إلبا ، وكان نابليون هو الذى أملاها .

ولمـــا وجد نفسه منهكا من السير ، ورأى الغريب أمامه مقعدا حجريا على باب المطبعة ، رقد مكوما فوقه . وفى هذه اللحظة خرجت سيدة عجوز من الكنيسة ورأت الرجل الممدد فى الظل ، فقالت له :

– ماذا تصنع هنا يا صاحبى ؟

فرد عليها بفظاظة وغضب :

– كما ترين ... رقدت لأنام !

وكانت هذه السيدة الطيبة هى الماركيزة. فقالت برفق:

– فوق هذا الحجر ؟

فقال الرجل :

– لى تسعة عشر عاما أرقد على حشية من الخشب . ولكن حشيتى هذه الليلة من الحجر !

– أكنت جنديا ؟

– نعم . جنديا ايتها المرأة الطيبة .

– ولماذا لا تذهب إلى الخان ؟

– لأنه لا نقود معى .

فقالت الماركيزة :

– للأسف ليس فى كيسى إلا أربعة صلديات !

– هاته !

واخذ الرجل الصلديات الأربعة، واستطردت السيدة :

– إنها لن تكفيك اجرا للمبيت فى خان . ولكن هل جربت أماكن أخرى ؟ فمن المستحيل ان تقضى الليل هكذا . و لابد انك جوعان وتشعر بالبرد . ومن الممكن إيواؤك صدقة .

– لقد طرقت كل باب .

– وماذا حدث ؟

– طردونى من كل مكان .

فلمســـت السيدة الطيبة ذراع الرجل وأشــــارت له إلى بيت صغير فى الناحية الأخرى من الميدان ، بيت منخفض إلى جوار مقر الأسقفية ، وقالت :

– أطرقت كل الأبواب ؟

– نعم .

– وهل طرقت هذا الباب ؟

– كلا !

– اطرقه !

– ٢ –
الحيطة والحكمـــة

وفى ذلك المساء نفسه ، بعد عودة نيافة اسقف (د) من نزهته فى المدينة ، ظل وقتا طويلا مغلقا عليه باب غرفته . كان مشغولا بعمل كبير عن « الواجبات » ، ومن اسف أن هذا العمل الكبير لم يتم . وقد استقصى فيه بكل عناية كل ما قاله الآباء والعلماء عن هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه هـذا مقسما إلى جزأين : اولهما عن واجبات الجميع او الكافة ، وثانيهما عن واجبات كل واحد على حدة ، طبقا للطبقة التى ينتمى إليها .

وواجبات الكافة هى الواجبات العظمى . وهى أربعة . وقد دلنا عليها القديس متى الرسول : واجبات المرء نحـو الله (متى ٦) وواجبات المرء نحو نفسه (متى ٥ : ٢٩ و ٣٠) وواجبات المرء نحو قريبه (متى ٧ : ١٢) وواجبات المرء نحو المخلوقات (متى ٦ : ٢٠ و ٢٥) .

اما الواجبات الأخرى فقد وجدها الأسقف مذكورة فى مواضع اخرى ، فواجبات الملوك والرعية واردة فى رسالة بولس إلى اهل رومية . وواجبات القضاة والزوجات والأمهات والشبان ذكرها القديس بطرس ، وواجبات الأزواج والآباء والاولاد والخدم فى رسالة بولس إلى اهل افسس . وواجبات المؤمنين فى رسالته إلى العبرانيين . وواجبات العذارى فى

الرسالة إلى اهل كورنتوس . والف الأسقف من كل هـذه الوصايا مجموعة متناسقة أضنى نفسه فى سبكها وكان يريد تقديمها للنفوس المتعطشة للهداية .

وكان ما يزال يعمل فى الساعة الثامنة مساء ، منكبا على الكتابة فوق مربعات صغيرة من الورق ، وقد فتح كتابا كبيرا فوق ركبتيه ، عندما دخلت عليه مدام مجلوار جريا على عادتها لتأخذ صحاف الفضة من الصوان القريب من الفراش . وبعد برهة شعر الأسقف أن المائدة اعدت وان أخته ربما كانت تنتظره الآن ، فاغلق الكتاب ، ونهض عن منضدته ودخل حجرة المائدة .

وكانت حجرة الطعام مستطيلة ذات مدفأة ، ولها باب يؤدى إلى الشارع ، ونافذة مطلة على الحديقة .

وكانت مدام مجلوار على وشك الفراغ فعلا من إعداد المائدة . وفى أثناء قيامها بالخدمة ، كانت تتحدث مع الآنسة باتستين .

وفوق المائدة كان المصباح مشتعلا ، والمائدة قريبة من المدفاة ، وفيها نار كبيرة متقدة .

وفى وسعنا ان نتخيل بسهولة هاتين المراتين اللتين تجاوزت كل منهما الستين من عمرها . فمدام مجلوار قصيرة بدينة متدفقة الحيوية ، والآنسة باتستين دمثة رفيعة ، بل نحيلة ، وأطول قليلا من أخيها الأسقف ، وعليها ثوب من الحرير كان لونه هو الموضة فى سنة ١٨٠٦ ، عندما اشترته

من باريس ، وما زالت تستعمله فى سنة ١٨١٥ .. اما مدام مجلوار فكانت تبدو مثل الفلاحة ، فى حين كانت تبدو الآنسة باتستين سيدة . وترتدى مدام مجلوار فوق رأسها قلنسوة بيضاء ، وتتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، كانت هى الحلية النسائية الوحيدة فى هذا البيت . ويبدو الذكاء على هـــذه الخادمة مع حيوية وطيبة ، وشفتها العليا اغلظ من السفلى ، مما اضفى عليها لونا من الجهامة . وحين يلزم سيدنا الصمت، كانت مدام مجلوار تكلمه بحزم ومزيج من الاحترام والحرية ، ولكن متى تكلم سيدنا سارعت إلى الطاعة السلبية شـــانها شأن الآنسة شقيقته . أما الآنسة باتســـتين فكانت لا تتكلم بتاتا ، بل كانت تكتفى بالطاعة والاذعان والسعى فى مرضاته. وحتى عندما كانت شابة لم تكن جميلة ، فلها عينان كبيرتان زرقاوان وانف طويل محـــدب ، إلا ان كل محيـــاها ، بل كل كيانها ، يوحى بالطيبة التى لا حد لها . وكانت مجبولة طيلة حياتها على الوداعة . أما الإيمان ، والرحمة ، والرجاء ، فهى فضائل ثلاثة تدفىء الروح ، وقد نمت لديها وارتفعت بوداعتها الفطرية إلى مستوى القداسة . فالطبيعة جعلت منها شاة. اما الدين فجعل منها ملكا كريما . يا للفتاة القديسة المسكينة !

وقد روت الآنسة باتستين مرارا كثيرة بعد ذلك ما حدث تلك الليلة فى بيت الأسقف ، ولذا لم يزل كثيرون ممن يعيشون حتى كتابة هذه السطور يذكرون اقل التفصيلات : ففى لحظة دخول سيدنا الأسقف إلى قاعة الطعام ، كانت مدام مجلوار تحدث الآنسة فى حرارة وحماسة . وكانت تحدثها فى موضوع مألوف لها ، وتعود الأسقف سماعه منها ، وهو موضوع اكرة

باب دخول البيت . ويبدو أن مدام مجلوار كانت قد خرجت فى المساء لشراء بعض لوازم العشاء ، فسمعت الناس يتحدثون عن أمور معينة فى مواضع مختلفة . كانوا يتحدثون عن لص قبيح السحنة ، عن متشرد مشبوه وصل إلى المدينة ، و لابد انه موجود بها فى مكان ما ، ولذلك يخشى على حياة وامن من قد يعودون لبيوتهم متأخرين فى هذه الليلة . وكانوا يقولون ايضا إن الشرطة فى المدينة لا يركن إليها ، لأن سيادة العمدة وسيادة المحافظ ليسا على وفاق ، وكل منهما يسعى للكيد للآخـــر بالتسبب فى حوادث مؤسفة . ولذا يقولون إن على النـــاس العقلاء ان يعتمدوا على انفسهم فى حراسة نفوسهم ونفائسهم، ومن ثم ينبغى إغلاق الأبواب وإحكام الرتاج عليها !

وضغطت مدام مجلوار على هذه الكلمة الأخيرة ، ولكن الأسقف كان قادما من غرفته حيث لا تدفئة ، لذا جلس أمام المدفأة ليستدفىء، ثم استغرق تفكيره فى موضوع آخر، فلم يلق باله إلى ما كانت تقوله مـــدام مجلوار . فكررت كلامهـــا . وارادت الآنسة باتستين أن ترضى مدام مجلوار من غير ان تثير استياء اخيها ، فقالت على استحياء : « أســـمعت يا اخى ما تقوله مدام مجلوار ؟ » .. فأجابها الأسقف : « ســـمعت طرفا منه » . ثم استدار بكرسيه ، ووضع يديه على ركبتيه ورفع إلى الخادمة العجوز وجها ودودا دمثا ، اضاءته النار من أسفل ، وسألها باسما : « لنر ما الخبر! ماذا حدث؟ انحن حقا فى خطر داهم ؟ » . وعندئذ أعادت مـــدام مجلوار على سمعه كل القصة ، مع شيء قليل من المبالغة ، من غير ان تشعر . قالت إن بوهيميا صعلوكا متشردا فيما يظهر يلوح

كالمتسول ، ولكنه خطر ، وفد الآن إلى المدينة . وذهب يطلب النزول فى خان لابار فلم يقبل ، وشوهد بعد ذلك فى شـــارع جاسندى ، ويتجول فى الشوارع المتفرعة منه ، وهو يحمل كيسا ضخما على ظهره وله سحنة مروعة !.. فقال الاسقف: « حقا ! » . وقد شجع اهتمام الأسقف بالسؤال مدام مجلوار، وقد خطر لها ان الأسقف داخله القلق . فواصلت كلامهـا بلهجة المنتصرة : « اجل يا سيدنا ! الأمر هكذا . وسيحدث الليلة شر فى المدينة . الناس جميعا يقولون هذا . يضـاف إلى هذا ان الشرطة لا يركن إليها . ونحن نعيش فى إقليم جبلى ، ولا تضع الحكومة مصابيح إضاءة فى الشـوارع ! والناس يخرجون ليلا ، للذهاب إلى الأفران . ولذا فانا اقول، والآنسة ها هنا تقول مثل قولى .. فقاطعتها الأخت : « أنا لا اقول شيئا . ما يصنعه اخى فهو حسن ! » . واستطردت مدام مجلوار كأن هذه المقاطعة لم تحدث : « نحن نقول إن هذا البيت ليس مأمونا على الاطلاق . فإذا سمح سـيدنا ذهبت إلى « بولان ليزبوا » صانع الاقفال فجـاء وركب فى الباب رتاجاته ومفاتيحه القديمة ، وهى موجودة عندنا ، ولن يستغرق الأمر دقيقة . ويجب تركيب رتاجات قوية يا سيدنا وخصوصا هذه الليلة ، فالباب الذى تدار اكرته فيفتح لأى عابر سبيل فى غاية الخطورة .. وسيدنا من عادته ان يقول لكل طارق بلا تمييز « ادخل » . وفى جوف الليل لا حاجـة للداخل إلى استئذان . هذا فظيع ! » .

وفى هذه اللحظة سمعت على الباب طرقة عنيفة ، وقال الاسقف على الفور : — أدخل !

- ٣ -
بطولة الطاعة السلبية

وانفتح الباب .

انفتح بقوة ، على سعته ، كأنما دفعه احد بشدة وعزم.

ودخل رجل .

هذا الرجل نحن نعرفه من قبل : إنه المســافر الذى رأيناه منذ قليل يتجول بحثا عن مأوى .

دخل ، وخطا خطوة واحدة ثم وقف ، تاركا البـاب مفتوحا من خلفه . وكان كيسه فوق كتفه ، وعصاه الغليظة فى يده ، وتطل من عينيه نظرة جافية صلبة مجهدة وعنيفة فى آن واحد . وسقط فوقه الضوء المنبعث من نار المدفأة . فكان مرعبا حقا . كأنه شبح مخيف .

ولم تجد مدام مجلوار فى نفسها القوة على إطلاق صيحة ذعر ، فارتجفت وظلت فاغرة الفم . واستدارت الآنســة باتستين ولمحت الرجل الذى دخل ووقفت نصف وقفة من فرط دهشتها وارتياعها ، ثم حولت رأسها قليلا قليلا نحو المدفأة واخذت تنظر إلى اخيها ، وعندئذ استعاد محياها هدوءه العميق وطمأنينته . وثبت الأسقف على الرجل نظرة هادئة . وعندما فتح فاه : ليسأل القادم ولا شك عن مراده، اتكأ الرجل بكلتا يديه على عصاه ، واجال بصره تباعا فى الشيخ والمراتين ، ومن غير ان يتريث إلى أن يتكلم الأسقف ، قال بصوت عال :



انفتح الباب بقوة ، على سعته ، كأنما
دفعه احد بشدة وعزم ، ودخل رجل..

— إليك من انا ! اسمى « جان فلجان » JEAN VALJEAN وانا خارج من السجن فى السفن . وقد امضيت فى الليمان تسعة عشر عاما ، وقد اطلق سراحى منذ اربعة ايام ، وانا فى طريقى الآن إلى (بنيترلييه) ، فهى مقصدى . لى اربعة ايام وانا امشى من طولون . وقد قطعت اليوم اثنى عشر فرسخا سيرا على قدمى . وعندما وصلت إلى هذه الناحية هذا المساء توجهت إلى خان فطردونى بسبب جواز سفرى الأصفر اللون الذى ابرزته فى دار العمدة ، لأنه كان لابد من هذا . وذهبت إلى خان آخر فقيل لى : انصرف عنا ! وطرقت باب هذا وذاك ، ولكن احدا لم يقبلنى . بل قصدت السجن ، ولكن البواب لم يفتح لى . ودخلت فى وجار كلب فعضنى الكلب وطردنى . كأنما هو بشر ! حتى لكأنه كان يعرف من انا ، وخرجت إلى الحقول كى ابيت تحت النجوم الوامع ، فلم اجد فى السماء نجما واحدا ، وظننت ان السماء ستمطر ، وانه لا وجود لإله يمنع المطر من السقوط ، وعدت إلى المدينة وهناك وجدت مدخل باب فى الميدان ، وهناك اردت ان استلقى على مقعد طويل من الحجر ، ولكن امراة صالحة اشارت لى إلى بيتك وقالت لى : « اطرق هذا الباب ! » فطرقت . فأى مكان هذا ؟ أانتم خان ؟ ان معى نقودا ، معى رصيد اجرى . مائة وتسعة فرنكا و ١٥ صلديا كسبتها فى الليمان ، بعملى الشاق طيلة تسعة عشر عاما . سادفع الأجر . فكم يكلفنى هذا ؟ معى نقود . وانا مجهد جدا ، بعد السير اثنى عشر فرسخا على قدمى ، وجائع . فهل تريد منى ان ابقى ؟

فقال الأسقف : « مدام مجلوار . ضعى طبقا إضافيا على المائدة » .

فتقدم الرجل ثلاث خطوات من المصباح الذى كان فوق المائدة وقال كأنه لم يفهم ما قيل : « اسمع : ليس الأمر هكذا . هل سمعت ما قلت ؟ أنا قــادم من الســخرة فى التجــديف بالسفن . بحكم بالأشغال الشاقة . أنا قادم من التجديف فى سفن الأسطول » .

واستخرج من جيبه ورقة كبيرة صفراء بسطها واردف : « هاك جواز سفرى . وهو أصفر كما ترى . وبنـــاء عليه يطردوننى من كل مكان أذهب إليه . هل لك فى قراءته ؟ أنا أعرف القراءة ، تعلمتها فى الليمان . ففيه مدرسة لتعليم كل من يرغب من السجناء . اسمع ، هاك ما سجلوه على جواز سفرى : « جان فلجان . أشغال شاقة . أطلق سراحه . من مواليد ... » هذا لا يهمك .. « قضى ١٩ عاما فى الليمان . خمس سنوات للسرقــة مع التحطيم . وأربع عشرة ســنة لمحاولة الهرب ٤ مرات . وهذا خطر جدا « هاك ! وقد طردنى لهذا السبب كل الناس . فهل تريد أنت استقبالى ؟ أهذا خان؟ اتريد ان تقدم لى الطعام والمبيت ؟ أعندك اسطبل ؟ » .

فقال الأسقف : « مدام مجلوار . ضعى أغطية بيضاء على فراش الخلوة » .

ونحن قد شرحنا وافضنا من قبل فى طبيعة الطاعة لدى هاتين المرأتين .

وخرجت مدام مجلوار لتنفيذ أوامره . والتفت الأسقف نحو الرجل : « اجلس ياسيدى واستدفىء . فنحن على وشك تناول العشاء بعد لحظة ، وسيتم إعــداد فراشــك وانت تتعشى » .

وعندئذ فهم الرجل تماما . وارتسم الذهول على تعبير وجهه الذى كان حتى الآن قاسيا متجهما ، وخالط هذا الذهول شك وفرح ، فغدا منظره عجيبا . وراح يغمغم كالمخبول : « حقا ؟ ماذا ؟ أتستبقينى ؟ ألا تطــردنى ؟ خــريج ليمان ! وتنادينى قائلا يا سيدى؟ ولا تقول لى أخرج من هنا يا كلب ! كما يقولون لى فى كل مكان . كنت أعتقد انك ستطردنى ، ولذا قلت لك على الفور من انا ! ما اطيب المراة الصالحة التى ارشدتنى إلى هنا ! سوف أتعشى ؟ ! وأنام فى فراش له حشايا واغطية ! مثل الناس جميعا ؟ فراش ! لى ١٩ عاما لم أرقد على فراش ! أتريد حقــا ان أبقى ولا أنصرف ؟ أنتم ناس طيبون فضلاء ! ولكن معى نقودا . وسأدفع ! عفوك ياسيدى رب الخان ! ما اسمك ؟ سأدفع كل ما يطلب منى . أنت رجل شهم . أنت صاحب خان . أليس كذلك ؟

فقال الأسقف : « أنا كاهن ، يقيم هنا » .

فقال الرجل : « كاهن ! أنت كاهن شهم ! أنت إذن لا تطالبنى بنقود ؟ أنت الخورى ، أليس كذلك ؟ خورى هذه الكنيسة الكبيرة فى الميدان ؟ آه ! هذا صحيح ! يالى من غبى ! لم أفطن إلى غطاء رأسك » .. وكان قد وضع عنه وهو يتكلم كيسه وعصاه فى ركن ، وأعاد جواز مروره إلى جيبه ، وجلس .

ورمقته الآنسة باتستين فى عذوبة . واستطرد هو : « انت إنسان يا سيدى الخورى . فأنت لا تحتقرنى . ما أطيب ان يكون الكاهن طيبا ! انت إذن لست بحاجة إلى ان ادفع لك المقابل ؟ » .

فقال الأسقف : « كلا . احتفظ بنقودك . كم معك ؟ الم تقل لى ١٠٩ فرنكات ؟ » .

فأضاف الرجل : « و ١٥ صلديا » .

— ١٠٩ فرنكات و ١٥ صــــلديا . وكم لبثت تعمل كى تكسبها ؟

— تسع عشرة سنة !

— تسع عشرة سنة ؟ !

قالها الأسقف بصوت عميق ! وواصل الرجل كلامه : « ولم تزل كل نقودى معى . فمنذ اربعة ايام لم انفق إلا ٢٥ صلديا كنت قد كسبتها نظير تفريغ بضع عــربات نقـــل فى (جراس) . وما دمت قسا فسوف احكى لك . فقد كان لنا كاهن فى الليمان ، وذات يوم رأيت أسقفاً — ينادونه سيدنا — وهو أسقف الماجور فى مرسيليا . وهو الخورى الذى يرأس كل القسوس الآخرين . آه . انت تعرف هذا ، عفوك ! لقد اسأت القول ، ولكن هذا كان على مبعدة منى جدا ! فقد تلا القداس فى وسط الليمان ، على مذبح ، وكان فوق راسه شىء مدبب من الذهب ، كان يلمع فى الشمس الساطعة . وكنا نحن السجناء مصطفين على الجوانب الثـــلاثة . وفى مواجهتنا المدافع ، وفتيل الاطلاق مشتعل ! ولم نكن نرى بوضوح .

وتكلم طويلا ، ولكنه كان بعيدا عنا جدا فلم نسمعه . وهاك هو الأسقف ! » .

وفيما كان الرجل يتكلم ، ذهب الأسقف فأغلق البــــاب الذى كان لم يزل مفتوحا على سعته . وعادت مدام مجلوار تحمل أدوات طعام الشخص الطارىء فوضعتها على المائدة . وقال لها الأسقف عندئذ : « يا مدام مجلوار . ضعى هــــذه الصحفة فى اقرب مكان إلى النار » .. ثم التفت إلى ضيفه وقال : « هواء الليل قاس فى الألب . لا بد انك تشعر بالبرد يا سيدى ؟ » .

وفى كل مرة كان يقول له فيها « يا سيدى » بصــــوته الهادىء المهيب الودود غاية الود ، كان وجه الرجل يشرق . فما أطيب وقع كلمة « يا سيدى » على سمع خارج من الليمان . فما أشد ظمأ المهـــانة إلى التقـــدير والاحترام ! .. واردف الأسقف : « إن ضوء هذا المصـــباح خـــافت ، ففهمت مدام مجلوار مراده ، وذهبت فأحضرت من فوق رف مدفأة حجرة نوم سيدنا شمعدانى الفضة فوضعتهما على المائدة مشتعلين . وقال الرجـــل : « يا ســـيادة القس ، أنت طيب . فأنت لا تزدرينى . بل تستقبلنى فى بيتك ، وتشعل لى شموعك . ومع هذا فأنا لم أكتم عنك من انا ومن اين أتيت وانى رجل تعس شقى ! » .. فلمس الأسقف يد الجالس بقربه فى عذوبة وقال : « كان فى وسعك الا تقول لى من انت . فليس ها هنا بيتى . بل بيت يســوع المسيح . وهذا الباب لا يسأل من يدخل منه هل له اسم ، بل يسأله هل له وجيعة ! أنت تعس يعانى . وانت جائع وظمآن . فمرحبا بك! ولا تشكرنى، ولا تقل لى انى

استقبلك فى بيتى ، فلا احد هنا فى بيته إلا من يحتـــاج إلى
مأوى . ولذا اقول لك يا عابر السبيل انك هنا فى بيتك اكثر
منى . وكل ما هو موجود هنا فهو لك . وما حاجتى إلى ان
اعرف اسمك ؟ ثم من قبل أن تقوله لى . كان لك اسم كنت
اعرفه ! » .

ففتح الرجل عينيه دهشة وقال : « حقا ؟ اكنت تعرف
ما هو اسمى ؟ » . فأجابه الأسقف : « اجل ! كان اسمك
(اخى!)». فصاح الرجل: «اسمع يا سيدى القس ! لقد كنت
جائعا جدا عندما دخلت إلى هنا ، ولكنك مفرط الطيبة حتى
انى لم أعد أعرف ماذا بى. فقد انقضى شعورى بالجوع !»..
فنظر إليه الأسقف وقال : « هل تعذبت كثيرا ؟ » .

ـ اوه ! الخوذة الحمراء ! والقيد فى القدم ، ولوح
خشبى لأنام عليه . والحر . والبرد . والعمــل . وطغمة
السجناء . وضربات العصا . والأغلال المزدوجة لأتفه سبب.
والزنزانة الانفرادية بسبب كلمة . وحتى وأنا مريض طريح
الفراش ، فالقيد فى قدمى . ان الكلاب لأسعد حالا ! تسع
عشرة سنة ! عمرى الآن ست واربعون سنة . وجواز
مرورى الآن أصفر اللون . هذا هو حالى !

فقال الأسقف : « اجل ! انت خارج من مكان تعس .
اسمع ! سيكون فرح فى السماء بوجه خاطىء تائب تبلله
الدموع اكثر مما اعد للثوب الابيض الذى يرتديه مائة إنسان
بار من اهل العدل والصلاح ! ولقد خرجت من ذلك المكان
الاليم وانت تفيض بأفكار الحقد والغضب على البشر ، فأنت
جدير بالشفقة . وإن خرجت منه بأفكار الرغبة فى المودة

والعذوبة والسلام ، فانت إذن أفضل من اى واحد منا ! » .

وكانت مدام مجلوار قد قدمت وجبة العشاء المعتـــادة
المكونة من حساء مصنوع من الماء والزيت والخبز والملح ،
وقليل من الدهن ، وقطعة من لحم الضان ، وبضع ثمرات من
التين ، وقطعـــة من الجبن الطـــازج ورغيف كبير من دقيق
الجودار. وأضافت من تلقاء نفسها إلى عشاء الأسقف المعتاد
زجاجة من نبيذ موف المعتق .

وما إن راى الأسقف المائدة حتى تهلل وجهه شأن من
جبل على كرم الضيافة وقال بحيوية ، كعادته كما كان على
مائدة عشائه ضيف ، واجلس الرجل إلى يمينه : « هيا إلى
الطعام ! » .. وجلست الآنسة باتستين فى هدوئها الوادع
المعتاد عن يساره . وتلا الأسقف صـــلاة البركة ، ثم قـــدم
الحســاء بنفسه كعادته . وشرع الرجل يأكل بنهم . وفجأة
قال الأسقف : « ولكن يبدو لى أن شيئا ينقص هذه المائدة !».

وبالفعل كانت مدام مجلوار لم تضع الصحاف الفضية
الخالصة التى كان وضعها أشبه بالشعائر الضرورية على
مائدة الأسقف . وكان من عادات الدار عندما يكون هناك على
مائدة الأسقف أحد ، أن توضع الصحاف الست كاملة ، فى
استعراض احتفالى برىء. فكأن هذه العادة ضرب من مظاهر
الترف الطفليـــة فى ذلك البيت الوديع الصـــارم الذى ارتفع
بالفاقة إلى مستوى المهانة والكرامة .

وفهمت مدام مجلوار الملاحظة ، فخرجت من غير أن
تقول كلمة واحدة ، وبعد لحظة كانت الصحاف قد اكتملت
فوق المفرش ، تلمع فى ضوء الشمعدانين !!

- ٤ -

تفصيلات عن مصانع الجبن فى (بنترلييه)
PONTARLIER

والآن . لكى نقدم فكرة عما حدث على هذه المـــائدة ، فليس لدينا خير من نشر فقرة من خطاب للآنسة باتستين إلى « مدام دى بواشيفرون » ، فهى تورد فى هذه الفقرة الحديث الذى جرى بين ذلك الخارج من الليمان وبين الأسقف بدقـــة سـاذجة :

« لم يلق هذا الرجل باله إلى أحد ، بل كان يأكل بضراوة من يتضور جوعا .

إلا أنه بعد العشاء قال : « سيدى كاهن الرب . كل هذا أفضل وأطيب مما أستحق ، ولكنى أجـــد لزاما على أن أقول أن مدحرجى البراميل الذين أبوا أن يجعلونى آكل معهم ، كان طعامهم أشهى وأفضل من طعامك ! » .

« وفيما بينى وبينك ، صدمتنى ملاحظته هذه ، وأجابه أخى : « ذلك أنهم يتعبون فى عملهم أكثر مما أتعب أنا » . فأجابه الرجل : « لا . بل لأن نقودهم أكثر من نقودك . فأنت فقير فيما أرى . بل لست أظنك خوريا . بل قســـيس من مرتبة أدنى . أليس كذلك ؟ آه ! لو كان الله عادلا حقا لجعل منك خوريا » . فقال أخى : « بل الله أكثر من عادل » . وبعد لحظة أردف : « يا مســـيو جـــان فلجان . أذاهب أنت إلى (بنترلييه) ؟ » .

- بمقتضى خط السير الإجبارى .

« وأظن أنه هكذا قال ، ثم استطرد : « ويجب أن أكون على الطريق غدا مع طلوع النهار . إذ لا بد من السير الجاد ، ولئن كانت الليالى باردة . فالنهار حار » .

« فقال أخى : « أنت ذاهب هناك إلى إقليم حسن . فبقيام الثورة دمرت أسرتى وخربت وأفلست ، وقد التجأت أولا إلى « فرانش كونتيه » وعشت هناك من عمل يدى . وكانت إرادتى طيبة ، فوجدت هناك ما يشغلنى ، فليس على المرء إلا أن يختار . فهناك مصانع ورق ، ومصانع براميل ودنان ، ومصانع تقطير للخمر ، ومعاصر زيوت ، ومصانع ساعات كبيرة ، ومصانع فولاذ ، ومصانع نحاس ، وعشرون مصنعا على الأقل للحديد ، منها أربعة فى (لود) وفى (شـــاتيون) و (أودنكور) و (بير) ، وكلها مصانع ضخمة » .

« ولا أظننى أخطأت فى سرد الأسماء التى ذكرها أخى ، ثم قطع كلامه ووجه لى الكلام قائلا : « أختى العزيزة . أليس لنا أقارب فى ذلك الإقليم ؟ » .

« فأجبته : « كان لنا هناك أقارب . من بينهم المسيو دى ليسنيه الذى كان قائد البوابات فى (بنترلييه) ، فى العهد البائد » . فقال أخى : « نعم . ولكن فى سنة ١٧٩٣ لم يعد لنا أقارب ، لم يعد للمرء إلا ذراعاه ، ولذا أكببت على العمل بيدى . ويوجد فى إقليم (بنترلييه) حيث تزمع الذهاب يا مسيو فلجان صناعة من نوع خاص ، بديعة جدا يا أختى . إنهـــا مصانع الجبن » . ثم انبرى أخى يحدث ذلك الرجل وهو يأكل

ويشرح له بالتفصيل صناعة الجبن فى بنترلييه . وأنها على
نوعين : الاهراء الضخمة التى يملكها الأغنياء ، وفيها ما بين
أربعين وخمسين بقرة ، تنتج فى الصيف ما بين سبعة آلاف
إلى ثمانية آلاف قرص من الجبن . وهناك مصانع بالمشاركة
يملكها الفقراء ، فمن عادة فلاحى الجبل الأوسط أن يضعوا
ابقارهم معا ويتقاسموا الناتج . وينتجون على حسابهم جبنا
يسمونه « جريران » . وتتلقى مصانع الجريران لبن الشركاء
ثلاث مرات فى اليوم . ويبدأ العمل فى مصانع الجبن حوالى
آخر شهر ابريل ، وفى نصف يونيو يقود الرعاة أبقارهم إلى
الجبل .

« وسرت الحيوية فى الرجل وهو ياكل ، وجعله اخى
يشرب نبيذ موف الجيد الذى لا يشربه هو شخصيا ، لانه يقول
إنه نبيذ غالى الثمن . وذكـر له أخى كل التفصـيلات بتلك
البشاشة السمحة التى تعهدينها فيه ، وهو يمزج حديثـه
بكلمات لطيفة . وعاد يحدثه عن جبن الجريران وحياة صناعه
الطيبة كانه كان يأمل أن يفهم ذلك الرجل ، من غير ان يسدى
له النصح بصورة مباشرة وقاسية ، ان ذلك العمل سيكون
ملاذا له . ولكن لفت نظرى شىء . فذلك الرجل كان كمـا
ذكرت لك ، ومع هذا لاحظت أن اخى طوال العشاء ، وطوال
السهرة ــ فيما عدا كلمة عابرة ذكر له فيهـا اسم يســوع
المسيح عندما دخل من الباب ــ لم يقل له عبارة واحدة تذكره
باى نوع من الناس هو ، ولا اى كلمة تشعره بحقيقة وضـع
اخى . وكان يبدو لى انها مناسبة طيبة لإلقاء عظة . ولكى
يترك الأسقف فى خريج الليمـان بصـمته . ولعل غيره كان

ينتهزها فرصة كى يغذى روح الرجل كما يغذى جسده ، وكى
يوجه إليه شيئا من التوبيخ الممزوج بالنصـح والحث على
محاسن الأخلاق وحسن السير والسلوك مستقبلا . ولكن
اخى لم يسأله ولو عن موطنه الأصلى ، ولا عن قصته ، لأن
قصته تضمن خطيئته والذنب الذى اقترفه ، والظاهر ان اخى
تعمد تحاشى كل ما يذكره به . بل إنه عندما حدث الرجل عن
الجبلين من اهل بنترلييه وقال عنهم : «ان العمل عندهم لطيف
قريب من السماء . وهم سعداء لأنهم ابرياء ! » .. عنـدئذ
سكت اخى لحظة ، خشية أن يكون فى هذا تعريض به يثير
استياءه . وانني إذ أفكر فى هذا ادرك ما كان يدور فى خاطر
اخى وفؤاده . لقد كان يظن ان هذا الرجـل الذى يسـمى
« جان فلجان » لا يبرح فكره ما ارتكبه وما قاساه بسببه ،
وأن من الخير تلهيته عنه ، وان يجعله يشعر ، ولو للحظـة
قصيرة ، أنه مثل سائر الناس . ولذا عامله معاملة عـادية
جدا . اليس هذا مفهوما ساميا للرحمة والصدقة ! اليس فى
هذا عنصر إنجيلى ملائكى ، بتلك الرقة واللباقة ، التى جعلته
يتحاشى الوعظ والتلميح إلى النصائح الخلقية ؟ اليست افضل
رحمة بمن لديه موضع الم ان نحاذر من لمسه ؟ هذا ما بدا لى
انه كان يجول بفكر اخى وسريرته ، ولكنى اقول هـذا من
عندى ، وباجتهادى فى فهمـه ، اما هو فلم يشر إلى شىء من
هذا ، حتى ولا لى . بل كان طيلة الوقت كالعهد به تماما فى كل
امسية . وقـد تعشى مع جان فلجـان بنفس الروح ونفس
الأسلوب الذى يتبعه عندما يتعشى مع أرقى من يجلسون إلى
مائدته ، مأمورا كان الضيف أو خوريا بارز المكانة .

« وقرب الختام ، وفيما نحن ناكل التين ، طرق الباب . وكانت القادمة الأم جيربو وطفلها بين ذراعيها . وقبل اخى الطفل على جبينه واقترض منى خمسة عشر صلديا كانت فى جيبى لكى يعطيها للأم . اما الرجل فى هذه الأثناء فلم يلتفت لشىء . ولم يعد يتكلم بل كان بادى التعب ، وانصرفت الأم جيربو المسكينة ، وتلا اخى صلاة الشكر ، ثم التفت نحو ذلك الرجل وقال له : « لابد انك بحاجة إلى الرقاد » .

« وكانت مدام مجلوار قــد رفعت الصحاف والادوات بسرعة . وفهمت انا اننا ينبغى أن ننسحب لنترك الرجل لينام ، وصــعدنا نحن الاثنتان إلى الطــابق الأول . ولكنى سرعان ما ارسلت مدام مجلوار لتحمل إلى فراش الرجل جلد عنزة من الغابة السوداء كان فى حجرتى ، لأن الليل قارص البرد . ومن اسف ان ذلك الجلد قديم جدا ونحل شعره كله تقريبا . وكان اخى قد اشتراه وهو فى المانيا من (توتلنجن) قرب منابع الدانوب ، هو والسكين الصغير ذو المقبض العــاجى الذى استخدمه على المائدة .

« وصعدت مدام مجلوار عائدة على الفور تقريبــا ، وشرعنا نصلى فى صالونى الذى ننشر فيه الغسيل لأنه خال من الأثاث ، ثم دخلت كل واحدة منا حجرتها ، من غير أن نتبادل اى حديث ».

— ٥ —
طمــــــــأنينة

وبعد أن القى سيدنا تحية المساء على اخته ، تناول من فوق المائدة احد الشمعدانين المصــنوعين من الفضــة الخالصة وسلم الآخر لضيفه وقال له : « سيدى . سأرشدك إلى حجرتك » .

وتبعه الرجل . وكما لاحظنا مما سبق ، كان المسكن مقسما بحيث انك كى تذهب إلى المصلى ، حيث الخلوة . او لكى تخرج منه ، لا بد أن تمر من حجرة نوم الأسقف . وفى الوقت الذى كان يجتاز فيه هذه الحجرة كانت مدام مجلوار تضع الفضيات فى الخزانة التى كانت عند راس فراش الأسقف . وكان هذا آخر عمل تقــوم به كل مســاء قبل أن تمضى إلى حجرتها لتنام .

وارشد الأسقف ضيفه إلى سريره فى الخلوة ، وهو سرير ابيض ناضر ، ووضع الرجل الشمعدان فوق المنضدة الصغيرة . وقال له الأسقف : « هيا ! طابت ليلتك ! وغدا صباحا قبل الرحيل ستشرب فنجانا من لبن بقرتينا ، ساخنا طازجا » .

فقال الرجل : « شكرا لك يا سيدى القس » .

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات الناطقة بالسلام ، حتى بدرت منه ، بلا تمهيد ، حركة غريبة كان من الممكن أن ترتاع لها السيدتان الصالحتان لو انهما رأتاها . وانه ليصعب علينا اليوم أن نتخيل ما كان يدور بخلده فى تلك اللحظة . اكان يريد

ان ينذر ، ام يتوعد ؟ ام كان منقادا لغريزة تدفعه قهريا وإن كانت غامضة عليه ؟ لقد استدار فجاة إلى الشيخ ، وعقد ذراعيه ، وثبت على مضيفه نظرة ضارية ، وصاح بصوت اجش : « آه ! اراك تقيمنى فى بيتك بالقرب منك إلى هذا الحد الغريب ! » . وتوقف عن الكلام ثم اردف بضحكة فيها شىء وحشى : « هل فكرت جيدا ؟ من ادراك انى لم اقتل ؟ » . فاجابه الأسقف : « هذا أمر يخص الله وحده ! » .

ثم قال بجد ووقار ، وهو يحرك شفتيه شأن من يصلى او يحدث نفسه ، ورفع أصبعى يده اليمنى وبارك الرجل الذى لم ينحن ، ومن غير ان يدير راسه ، او يلتفت وراءه ، دخل إلى حجرته .

وكانت العادة عندما ينزل احد ليبيت فى الخلوة أن يسدل ستار من القطن بحيث يخفى المذبح فى المصلى . وركع الأسقف عندما مر أمام هذا الستار وتلا صلاة قصيرة . وفى اللحظة التالية كان فى حديقته ، يمشى ويحلم ، ويتأمل ، وهو منصرف بروحه وفكره جميعا إلى هذه الأشياء العظيمة الغامضة التى يكشفها الله فى الليل للعيون التى تظل مفتوحة .

اما الرجل فكان متعبا حقا ، حتى أنه لم يستفد من هذه الأغطية ناصعة البياض . بل نفخ شمعته كما يفعل السجناء ، واستلقى بكامل ملابسه على الفراش ، واستغرق فى نوم عميق من فوره .

ودقت ساعة الكاتدرائية منتصف الليل بينما الأسقف يعود إلى حجرته من حديقته .

وبعد بضع دقائق . كان الكل نياما فى البيت الصغير .

- ٦ -

جان فلجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان فلجان .

وكان جان فلجان من اسرة فلاحين فقيرة فى « لابرى » LA BRIE . ولم يتعلم القراءة فى طفولته . ولما بلغ سن الرجال احترف تقليم الأشجار وتذكيرها فى فافرول . وكانت أمه تسمى « جان ماتييه » (متى) ، وأبوه يسمى « جان فلجان » .

وكان جان فلجان ذا طبع ميال للتفكر ، من غير كآبة ، وهذا من سمات الطبائع العاطفية . ولكنه فى جملته كان كثير الشرود ولا يلفت الأنظار ، فى الظاهر على الأقل . وكان قد فقد فى سن صغيرة جدا أباه وأمه . وكانت وفاة امه بحمى النفاس التى لم تجد العناية والتمريض الكافيين . اما ابوه ، الذى كان يقلم الأشجار ايضا ، فمات قتيلا . سقط من فوق شجرة عالية فدق عنقه . فلم يبق له من أحد فى الدنيا غير أخته الأكبر منه ، وهى ارملة لها سبعة اطفال بين بنين وبنات . وكانت هذه الأخت هى التى ربت جان فلجان . وفى حياة زوجها هى التى آوته وأطعمته . ثم مات الزوج . وكان اكبر الأبناء السبعة فى الثامنة من عمره ، اما الأصغر فعمره عام واحد . وكان جان فلجان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فحل محل ابيه ، وعال اخته التى كفلته آنفا . وتم

هذا ببساطة ، لأنه الواجب ، وإن كان بشيء من الجهامة من جانب جان فلجان .

وهكذا انقضى شبابه فى عمل شاق هزيل الأجر . ولم يعرف له اهل الناحية « صاحبة » شأن الفتيان من لداته . فلم يكن لديه وقت للوقوع فى الغرام .

وفى المساء كان يعود إلى البيت مجهدا ، فيتناول عشاءه من غير أن يتفوه بكلمة واحدة . وكانت اخته « الأم جــان » تغافله وهو يأكل وتأخذ من صحفته افضل ما فى الوجبــة ، وقطعة اللحم الوحيدة ، وشريحة الشــحم ، وقلب الكرنبة، لتعطيه لأحد اطفالها . ويظل هو مكبا على المنضدة يأكل فى صمت ، وراسه يكاد يلامس الحساء ، وشعره الطويل يكاد يسقط فى صحفته ويغطى عينيه ، فكأنه لا يرى شيئا ممــا يحدث ويترك اخته تصنع ما تشاء .

الجانب الآخر من الحارة ، فلاحة تسمى مارى كلود . وكان
وكانت فى فافيرول ، غير بعيد من كوخ فلجــان ، فى
اطفال فلجان الجائعين فى معظم الأحوال يذهبون احيــانا ليقترضوا باسم امهم كوزا من اللبن من مارى كلود، ويشربونه خلف سياج او فى احد اركان الحارة ، وهم يتخاطفون الإناء فى لهوجة ، حتى ان البنات الصغيرات كن يسكبن بعضه على مراولهن . ولو عرفت الأم بما حدث لعاقبتهم عقابا شديدا على هذا النهب والسلب ، ولكن جان فلجان كان يعرف ، ويزمجر ، ولكنه يــدفع الثمن من وراء ظهــر الأم ، ويفلت الصغار من العقاب .

وكان كسبه فى موسم التقليم ثمانية عشر صــلديا فى اليوم ، وبعد ذلك الموسم يعمل فى الحصاد بأجر ، وعــاملا زراعيا ، ومساعدا لراعى ابقار ، وعتالا .. كان يؤدى كل عمل فى مقدوره القيام به . وكانت اخته تعمل من جهتها . ولكن ماذا تصنع لسبعة اطفال ! لذا كانت الأسرة قطيعا شقيا تخيم عليه التعاسة والفاقة وتكاد تخمد انفاســه . وجــاء الشتاء ذات سنة شديد القسوة ، فتعطل جان عن العمل . ولم يعد لدى الأسرة المسكينة الجائعة خبز — لا خبز هناكِ على الاطلاق . حرفيا لا على سبيل المجاز وهناك افواه سبعة اطفال جياع !

ومساء ذات يوم احد ، قرر « موبير ايزابو » صــاحب المخبز الكائن فى ميدان الكنيســة فى فافرول ان يأوى إلى فراشه ، وإذا به يسمع ضربة عنيفــة على واجهــة محله الزجاجية . ووثب قائما ليصل فى الوقت الذى يرى فيه ذراعا تمتد من خلال ثقب احدثته ضربة بقبضة اليــد فى الســياج والزجاج . وفى قبضة هذه الذراع رغيف تهم بالانطلاق به . وخرج ايزابو مهرولا ، وهرب السارق بأقصى سرعته ، وجرى ايزابو خلفه وقبض عليه . وكان السارق قد رمى الرغيف الكبير . ولكن ذراعه لم يزل يسيل منه الدم .

وكان هذا السارق جان فلجان .

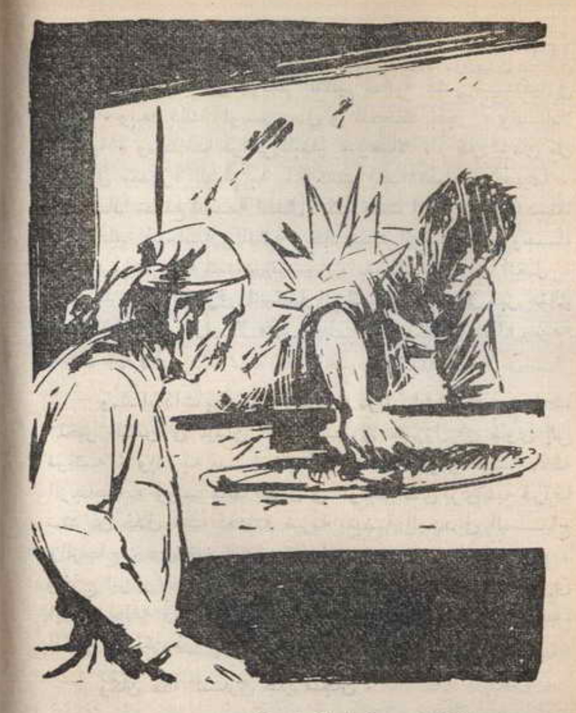
حدث هذا سنة ١٧٩٥ ، واقتيد جان فلجان امام محاكم ذلك الزمن بتهمة « السرقة مع التحطم ليلا من بيت مأهول » . ووجدوا عنده بندقية ، كان يستخدمها احيانا للصيد المختلس

من الغابات . وكان الصياد خلسة ، شأنه شأن المهرب ، يعد كأنه قاطع الطريق . ولكن ذلك النوع من المجرمين كان مختلفا فى نظر القانون عن قتلة المدن . فالصياد خلسة يعيش فى الغابة ، والمهرب يعيش فى الجبل أو فى البحر ، اما المدن فتخلق الرجال المتوحشين المتعفنين . فالغابة والجبل والبحر تربى فى الرجال الضراوة من غير ان تقتل فيهم الإنسانية .

وكانت نصوص القانون قاطعة ، فادين جان فلجان وحكم عليه بقضاء خمس سنوات من الأشغال الشاقة ، فى التجديف بسفن ذلك الحين .

وفى ٢٢ من ابريل سنة ١٧٩٦ انطلق المنادون فى باريس يعلنون انتصار « مونتنوت » الذى احرزه القائد العام لجيوش إيطاليا ، الذى تسميه رسالة الديركتـــوار (الإدارة) إلى مجلس الخمسمائة فى ٢ من فلورال من السنة الرابعة للثورة « الجنرال بونا بارته » . وفى ذلك اليوم نفسه اعدت سلسلة كبيرة من الحديد فى « بيستر » . وكان جان فلجان احد الذين شد وثاقهم بهذه السلسلة .

وبواب السجن الذى يبلغ عمره الآن حوالى تسـعين سنة لم يزل يذكر جيدا ذلك التعس الذى قيد بالسلسلة عند اقصى الجناح الشمالى للفناء . وكان جالسا على الأرض مثل جميع الآخرين ، وبدا عليه انه لم يفهم شيئا من وضعه ، اللهم الا انه فظيع رهيب . ومن الجائز ان افكارا بالغة التطرف خامرته وسط الأفكار التى تلاخمت فى راس هـذا الرجـل الجاهل . وفيما كانوا « يبرشمون » بضربات المطارق العنيفة خلف راسه مسمار قيده الحديدى ، كانت دموعه تنهمر ،



وو ثب قائما ليصـل فى الوقت الذى يرى فيه ذراعـا تمتد من خـلال ثقب احدثتـه ضربة بقبضـة اليد فى السياج والزجاج. وفى قبضة هذه الذراع رغيف تهم بالانطلاق به..

وخنقته عبراته فعاقته عن الكلام . وكل ما استطاع ان يقوله بين وقت وآخر ، فى نشيج متقطع :

ــ كنت اقلم الأشجار فى فافرول .

ثم رفع ــ وهو ينشج ــ يده اليمنى وخفضها على مراحل تدريجيــة ســبع مرات كانه يمس بها سبعة رءوس غير متساوية ، على التوالى ، ومن هذه الاشارة فهم من رآوه ان ما فعله ــ ايا كان ــ إنما كان من اجل غذاء وكساء سبعة اطفال .

* * *

ورحلوه إلى ميناء طولون . فوصل إليها بعد سفر طال سبعة وعشرين يوما ــ على عربة مكشوفة من عربات النقل ، والقيد الحديدى حول عنقه . وفى طولون ألبسوه الخــوذة الحمراء . واختفى كل ما كانت له صلة بما يعهده من حياته ، حتى اسمه ! فهو لم يعد يدعى جان فلجان ، بل رقم ٢٤٦٠١

وماذا كان من امر الاخت ؟ وماذا كان من امر الأطفال السبعة ؟ ومن ذا يعنى نفسه بهذا ؟ وماذا عسى ان يكون مصير حفنة من اوراق شجرة فتية مقطوعة ؟

انها دائما نفس القصة !

هذه المخلوقات الحية المسكينة . مخلوقات الله ، التى لم يعد لها سند ولا عائل ، ولا مرشد ولا ملاذ ، تتشتت حيثما اتفق . من يدرى ؟ فكل واحد منهم يمضى فى اتجاه ، ربما ، ويطويهم الضباب الكثيف البارد الذى يبتلع المصائر الشاردة ، فذلك ما يحدث لكل الرءوس المنكودة التى تضل طريقها فى مسالك النوع البشرى بلا سند .

لقد غادروا الإقليم وبرج ناقوس كنيستهم الذى كان رمز قريتهم نسيهم . بل إن جان فلجان نفسه بعد ان قضى بضع سنوات فى الليمان نسيهم ايضا . ففى الموضع الذى كانت به فى قلبه طعنة ، صارت الآن ندبة . وهذا كل شىء .

وفى طولون ، هل سمع مرة واحدة كلمة عن اخته ؟ اظن ان ذلك كان فى اواخر السنة الرابعة من اسره ، ولست ادرى كيف اتصل به هذا الحديث . ويبدو ان شخصا كان يعرفهم فى الاقليم فيما مضى رأى الأخت . كانت فى باريس . تسكن فى شارع فقير قرب « سان سبليس » هو شارع جندر . ولم يكن قد بقى معها إلا طفل واحد ، صبى صغير هو اصــغر ذريتها . واين ذهب الستة الباقون ؟ لعلها هى نفسها لم تكن تدرى . ففى كل صباح كانت تذهب إلى مطبعة فى شارع سابو رقم ٣ حيث كانت تعمل فى طى الملازم وتغليفها . ولا بد لها ان تكون هناك فى السادسة صباحا ، اى قبل بزوغ النهار فى فصل الشتاء . وكانت فى دار الطباعة مدرسة ، فكانت تأخذ ابنها الصغير ، ابن السابعة ، إلى تلك المدرسة . ولكنها تدخل إلى المطبعة فى السادسة ، والمدرسة لا تفتح بابها قبل السابعة، فكان لا بد للطفل ان يظل فى الفناء حتى السابعة، اى ساعة كاملة ، وهى فى الشتاء ساعة من الليل والهواء العاصف . ولم يقبلوا ان يدخل الطفل المطبعة ، لانه ــ فيما زعموا ــ يعطل سير العمل . فكان العمال وهم فى طريقهم إلى المطبعة فى الصباح يرون هذا الصغير المسكين جالسا على الطوار ، يغالب النوم ، بل كثيرا ما كان ينام مكوما فــوق سلته . وعندما كانت السماء تمطر ، كانت امرأة فقيرة هى

البوابة تأخذها الرحمة به فتدخله إلى مأواها الذى لم يكن به إلا مقعدان من الخشب وفراش من القش ودولاب لغزل الكتان، فكان الصغير ينام فى ركن ، محتضنا القطة كما يستمد منها بعض الدفء . وفى الساعة السابعة تفتح المدرسة ابوابها ، فيدخلها .

هذا ما قيل لجان فلجان ، فكأنما ومض البرق فى ظلمات حياته ، او كأنما انفتحت نافذة فجاة واطلعت على مصير هذه الكائنات التى كان يحبها ، ثم اقفلت ثانية . ولم يسمع بعد ذلك شيئا عنهم . ولم يصله قط شىء منهم. ولم يرهم بعدها ابدا ، ولم يلتق بهم . وبعد نهاية هذه القصة المؤلمة لن يعثر لهم على اثر .

وقرب نهاية هذه السنة الرابعة ، وقعت حادثة هرب جان فلجان . وساعده رفاقه ، على نحو ما يحدث هذا فى ذلك المكان الفظيع . وهرب ، وظل يضرب على غير هدى يومين طليقا وسط الحقول ، هذا إذا سمينا المطارد طليقا ! فهـــو يتلفت حوله مروعا فى كل لحظة ، ويرتجف عند ســـماع اى صوت ، لانه يخاف كل شىء ، ومن كل دخان يتصاعد ، او إنسان يمر به ، بل ومن نباح الكلاب . ومن ركض الحصان ، ومن دقات الساعة . يخشى النهار لانه وقت الرؤية ، ويخشى الليل لانه وقت استحالة الرؤية . يخاف الطريق ، والدرب ، والدغل ، ولا يعرف جفناه الكرى !

وفى مساء اليوم الثانى قبضوا عليه . ولم يكن اكل ولا نام منذ ست وثلاثين ساعة . وحكمت عليه المحكمة البحرية بسبب

هذا الجرم بامتداد سجنه ثلاث سنوات ، لتصير العقوبة ثمانى سنوات .

وفى السنة السادسة حاول الهرب للمرة الثانية ، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ محاولته ، فقد افتقدوه عند التمام ، فأطلقوا مدفع الانذار ، وفى الليل وجدوه مختبئا تحت هيكل سفينة قيد البناء — وقاوم الحراس الذين قبضـــوا عليـــه — آه ! تمرد ومقاومة إذن ! وهو جرم ينص القـــانون الجنائى على أن عقوبته خمس سنوات ، منها سنتان فى القيـــد المضـــاعف ، فصارت جملة مدة عقوبته ثلاث عشرة سنة .

وفى السنة العاشرة حانت له فرصة ، فانتهزها ايضا ، ولم يكن حظه هذه المرة افضل . وعوقب بثلاث سنوات على هذه المحاولة . فصارت الجملة ست عشرة سنة . وأخيرا ، فى السنة الثالثة عشر حاول للمرة الأخيرة ولم يفلح إلا فى الاختفاءأربع ساعات ثم قبضوا عليه، ودفع ثمن هذهالساعات الأربع ثلاث سنوات فصارت الجملة تسع عشرة سنة . وفى اكتوبر سنة ١٨١٥ اطلق سراحه ، وكان قد دخل الليمان فى سنة ١٧٩٦ لكسر لوح زجاجى والاستيلاء على رغيف خبز .

جان فلجان سرق رغيفا . وهنـــاك إحصائية إنجليزية تقول إن اربع سرقات من كل خمس سرقات تحدث فى لندن ، سببها الجوع !

وكان جان فلجان قد دخل الليمان باكيا مرتجفا ، ولكنه خرج منه جامد الحس . كان قد دخله يائسا ، ولكنه خرج منه مغموما حانقا مكفهرا .

فما الذى خامر تلك النفس ؟

- ٧ -

فى أغوار اليأس

فلنحاول ان نقوله :

ينبغى على المجتمع ان ينظر إلى هذه الأمور ، بما انه هو الذى يصنعها .

لقد كان الرجل كما قلنا جاهلا ، ولكنه لم يكن معتوها . فالنور الطبيعى كان متقدا فى داخله . وزاد الشقاء ، الذى له ضياءه أيضا ، ذلك النور القليل الذى كان فى ذلك الفكر . وتحت وقع العصا ، وتحت قيود الأغلال ، وفى الزنزانة ، وتحت نير التعب ، وقسوة شمس الليمان ، وعلى الواح فراش المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، انطوى هذا الرجل على سريرته وراح يفكر .

ونصب من نفسه محكمة .

وبدأ محاكمة نفسه .

فاعترف بأنه ليس بريئا عوقب ظلما . واعترف على نفسه بأنه ارتكب فعلة نكراء تستحق الملام ، وأنهم ربما ما كانوا ليضنوا عليه بهذا الخبز لو انه طلبه او استجداه ، وانه فى هذه الحالة كان خيرا له ان ينتظره، اما من يد الصدقة، او ثمرة عمل . وانه ليس سببا كافيا للسرقة لا مندوحة له ان يقول :

— وهل يملك الجائع ان ينتظر ؟

فمن المعروف اولا انه من النادر ان يموت احد جوعا . بالمعنى الحرفى للكلمة، ثم إن الإنسان، لحسن الحظ او لسوئه — مجبول بحيث يمكنه ان يتحمل كثيرا وطويلا انواع العذاب الجسدية والمعنوية ، من غير ان يموت . لذا كان ينبغى ان يصبر ، وان ذلك كان خيرا حتى لأولئك الصغار المساكين ، وان ما اقدم عليه كان عملا طائشا احمق ، فما اشد حماقة ان يأخذ هو الفرد التعس الهزيل بخناق المجتمع كله وان يتصور إمكان الخلاص من الشقاء عن طريق السرقة ، فذلك على كل حال كان بابا سيئا للخروج من ربقة البؤس ، كى يجد نفسه إنما دخل من باب العار . وقصارى الأمر ايقن انه اخطأ .

ثم تساءل :

اهو وحده الوحيد الذى ارتكب خطأ فى هذه القصة التعسة المضنية ؟ تساءل اولا : اليس شيئا خطيرا أن يفقد ، وهو العامل ، كل وسيلة العمل . والا يجد ، وهو الكادح المجد ، لقمة الخبز ، وتساءل بعد هذا اليس العقاب الذى قوبلت به فعلته التى اعترف بها بالغة القسوة ؟ او ليس هناك جور من جانب القانون فى عقوبته هذه اكثر من جور المذنب نفسه بإقدامه على الجرم ؟ او ليس هناك فرط رجحان فى إحدى كفتى ميزان العدالة ، وهى كفة الكفارة التى قوبلت بها هذه الفعلة ؟ او ليس فى فرط العقوبة ما يمحو الزلة نفسها ويقلب الوضع ، فاذا المتجاوز ليس هو المحكوم عليه بل كل هذا القمع يحول المذنب إلى ضحية ، والمدين إلى دائن ؟ ويجعل الحق والقانون الطبيعى بيد من قيل إنه انتهك القانون؟

او ليست هــذه العقوبــة ، التى تعقدت بامتدادات متوالية لمحاولات الهرب المتكررة قــد افضت إلى صيرورتها عدوانا من الأقوى على الأضعف ، وجريمة للمجتمع ضد الفــرد ، وهى جريمة تتجدد فى كل يوم ، جريمة دامت تسعة عشر عاما ..

وتساءل افى مقدور المجتمع الإنسانى ان يمتلك الحق فى ان يفرض المعاناة بالتســاوى على اعضـــائه ، تارة بجوره الخارق للمعقول ، وطورا بخلو عدالته من الرحمة ، وان يوقع فردا من افراده بين شقى الرحى، بين التفريط والإفراط ، بين التفريط فى كفالة عمل له يعيش منه وبين الافراط فى عقابه ؟

اليس ظلمــا فادحا ان يعامل المجتمع على هــذا النحو اعضاءه الذين غبنوا اعظم الغبن فى توزيع طيبات الحياة التى تغدقها الصدفة او تمنعها ، مع انهم اجدر الناس برعايته ؟

وما إن طرح هذه الأسئلة واصدر حكمه فيها حتى حاكم المجتمع بناء على هذا وادانه .

ادانه وحكم عليه بالكراهية .

وجعله مسئولا عن كل ما يقاسيه ، وقال لنفســه إنه قد لا يتردد يوما ما فى استئدائه الحساب ، وصارح نفسه بانه لا توازن البتة بين الضرر الذى احدثــه ، وبين الضرر الذى حدث له . وانتهى رايه إلى ان عقوبتــه لم تكن فى الحقيقــة ظلما ، بل هى يقينا خــرق للتناسب العـــادل ، وعدوان على الإنصاف .

إن الغضب يمكن ان يكون مخبــولا ولا معقولا . فمن الجائز ان يستثار المرء ويسخط ويغضــب وهو مخطىء ،

ولكنه لا يشعر بالاستنكار إلا إذا كان فى اعماقه يشعر بانه على حق من وجــه معين . ولذا كان جــان فلجان يشــعر بالاستنكار .

ثم إن المجتمع البشرى لم يسبب له إلا الشر ، ولم ير منه قط إلا ذلك الوجه الكالح الكاشر ، الذى يسـميه العدالة ، ويريه لمن يقرر ابتلاءهم . فالناس لم يمسوه إلا بقصد الإساءة إليه ومهانته ، وكل صلة له بهم كانت ضربة انزلوها به . ولم يحدث قط منذ طفولته ، ومنذ فقد امه ، ومنذ افترق عن اخته . ان التقى بكلمة مودة او نظرة عطف وتعاطف . ومن معاناة إلى معاناة وصل رويدا رويدا إلى ذلك الاقتناع بأن الحياة حرب ، وانه هو المهزوم وحده فى هذه الحرب . وليس لديه من سلاح إلا الحقد وما يضطرم بين جنبيــه من كراهية . ولذا قرر ان يشحذها فى الليمان كى يأخذها معه عندما يغادره .

* * *

وكانت فى الليمان مدرسة للسجناء يشرف عليها «الفرير» من الرهبان ، ومعلموها شبه جهلاء ، يعلمون فيها الضرورى جدا من القراءة والكتابة والحساب لمن لديه الرغبة فى التعلم من اولئك السجناء . وذهب إلى هذه المدرسة وهو فى الأربعين من عمره ، وتعلم القراءة والكتابة والحساب وشعر وهو يقوى ذكاءه انه ايضا يقوى حقده وكراهيته . ففى بعض الأحيان يكون التعليم والتنوير إضافة واداة ماضــية للشر فى النفوس المعتمة بالبغضاء .

ومن المحزن ان نقــول هــذا : فبعــد ان حكم على المجتمع بأنه هو الذى تسبب فى تعاسته وما يعانيه من شقاء ،

حكم أيضا على العناية الإلهية بانها هى التى خلقت المجتمع وصنعته على عينها ، ولذا ادان هذه العناية ايضا !

وهكذا ، على مـدى تسـعة عشر عامـا من العذاب والعبودية ، جعلت هذه النفس تعلو وتهبط فى آن واحـد ، يدخلها النور من جانب . وتدخلها الظلمات من الجانب الآخر.

ونحن قـد راينا آنفا ان جان فلجان لم يكن ذا طبيعـة سيئة ،وانه كان ما يزال طيبا عندما دخل الليمان . وفى الليمان ادان المجتمع وشعر بانه غدا شريرا ، وادان العناية وشعر بانه امسى كافرا .

وها هنا من العسير الا نتأمل برهة ونتمعن .

أمن الممكن ان تنقلب الطبيعـة البشرية راسـا على عقب انقلابا كليا ؟ أمن الممكن ان يتحول الإنسان الذى خلقه الله طيبا فيصير شريرا بفعل الإنسان وتأثيره ؟ أمن الممكن ان تتغير النفس البشرية من النقيض إلى النقيض بفعل القدر ؛ فتصبح شريرة إذا كان القدر شريرا؟ امن الممكن ان يتشوه القلب وينطوى على القبح والعاهات والعلل التى لا شفاء منها تحت ضغط شقاء جائر ، كمـا يتشـوه العمود الفقرى تحت عبء باهظ ؟ اليس فى كل نفس بشريـة ، والم يكن فى نفس جان فلجان بخاصة ومضـة أو شرارة اولى وعنصر إلهى لا يمكن افساده فى هذه الدنيا ، لانه خالد فى الحياة الاخـرى ، ويمكن تنميته وإذكاؤه وإيقاده كى يتالق ويشـع بكل بهائه ، ولا يمكن للشر ان يخمده ابدا ؟

هـذه اسئلة خطيرة وغامضـة ، ولعل علماء وظائف

الأعضاء يجيبون عن السؤال الأخير منها بكلمة لا ، وبلا تردد، لو انهم راوا فى ليمان طولون ، فى سـاعات الراحة التى كانت لدى جان فلجان ساعات شرود وتأمل ـ وقـد جلس معقود الذراعين فوق عارضة رافعة ، وقد دس طرف قيده فى جيبه ، وراح فى بحران من خواطره ، كظيما ، متجهما ، ساكتا ، طريد القوانين التى تتجهم البشر وتعاملهم بقسـوة وحقد ، وطريد المدنية فهو ينظر إلى السماء بصرامة وقسوة كالعداء .

يقينا ـ ولسـنا نريـد التمويه ـ جدير بعالم وظائف الأعضـاء ان يرى فى هذا بؤسا لا سـبيل إلى علاجه ، ولعله كان خليقا ان يعذر هذا المريض الذى أمرضه واقع حال القانون، ولكنه ما كان ليحاول علاجـه ، بل يشيح بوجهه عن هـذه الكهوف والمغاور التى لمحها فى اغوار هذه النفس ، وهو حقيق ان يصنع ما صنعه دانتى من قبل عند باب الجحيم، حين كتب عليه :

ـ ايها الداخلون ودعوا آمالكم !

اجل ، إنه كان حقيقا ان يمحو من هذه الحياة تلك الكلمة التى خطتها يد الله على جبين كل إنسـان ، كلمـة الأمل والرجاء !

ولكن هل كانت حالة النفس التى حاولنا تحليلها هنـا واضحة على هذا النحو لجان فلجان ، وضوحها الذى حاولناه لمن يطالعون سطورنا ؟

هل كان جان فلجان يرى بكل وضوح وتميز كل عناصر بؤسه المعنوى بعد تكونها ، وهل تبينها وهى قيـد التكوين ؟ وهل فطن هذا الرجل الفظ الجاهل غير المثقف كل الفطنة إلى

تعاقب الأفكار التى صعد درجاتها أو هبطها إلى حضيض تلك
الجوانب الكالحة المعتمـــة التى ظلت ســـنوات طويلة الأفق
الداخلى لنفسه وسريرته ؟ وهل له وعى بكل ما كان يعتمل فيه
وكل ما يموج فى أغواره ؟

لسنا نجسر على الجزم بهـــذا ، بل إننا لا نظنه حدث.
لقد كانت فى جان فلجان جهالة بالغة الجسامة ، لذا ظل الكثير
من جوانب نفسه غامضا عليه حتى بعد كل هذا الشقاء . حتى
انه فى بعض الأحيان لم يكن يدرى بالضبط ما يكابده ويشعر
به . لقد كان جان فلجان فى الظلمات ، ويعانى من الظلمات وفى
جوفها ، ويغلى بالكراهية وهو فيهـــا ، فهو يتخبط فى هـــذه
الظلمات ، ويعسعس فيها كالأعمى ، وكالحالم . وكل ما هناك
انه فى فتـــرات متبـــاعدة كان يتلقى فجـــأة من ذاته ومن
الخـــارج هزة غضب ، وفورة إضافية من العذاب والفناء ،
كأنها وميض برق سريع شاحب ينير له جميع جنبات نفسه ،
فتتراءى أمام عينيه على حين غرة ، وفى كل مكان مما حوله ،
من خلفه ومن قدامه ، فى ضوء فظيع كل المهاوى الرهيبة وكل
توقعات قدره الكالحة .

ومتى انقضى هذا البرق الخاطف ، تخيم الظلمـــة من
جديد ، فأين يلقى نفسه ؟ انه لم يعد يدرى !

إن الآلام التى من هذا القبيل ، التى يسيطر عليها ما لا
قبل للمرء به أداة جبارة لتحويل الإنسان إلى حيوان مفترس ،
بنوع من المسخ الرهيب. وكانت محاولات جان فلجان المتكررة
للهرب ، فى عناء مشوب بالغباء ، كافية لإثبات هـــذا العمل

العجيب الذى يمارسه القانون على النفس البشرية . فجـــان
فلجان كان حريا أن يكرر هذه المحاولات المطبقة الحماقة والتى
لا جدوى منها كلما سنحت له فرصة ، من غير أن يفكر لحظة
واحدة فى النتيجة أو يعتبـــر بالخبرات التى تمت له من قبل .
كان يفلت من سجنه بتهور كتهور الذئب الذى وجد قفصـــه
مفتوحا . وكانت الغريزة تقول له :

ــ اهرب ! انج بنفسك !

وكان العقل خليقا أن يقول له :

ــ ابق حيث أنت !

ولكن أمام إغـــراء بهـــذه القوة ، كان العقل يتلاشى ،
فلا تبقى إلا الغريزة . فإذا بالحيوان وحده هو الذى يتصرف .
وعندما يقبض عليه ، كانت ألوان القسوة التى يصبونها عليه
لا تأثير لها إلا زيادة ترويعه .

وثمة تفصـــيل لا ينبغى أن نغفله . وهو أن جان فلجان
كان ذا قوة بدنية خارقـــة لا تقاربهـــا قوة أى نزيل من نزلاء
الليمان . ففى كل الأعمال الشـــاقة المجهدة التى يعيا بهـــا
سواه ، كانت قوة جان فلجان تعادل قوة أقـــوى أربعة من
زملائه مجتمعين . فكان أحيانا يرفع فوق ظهره أثقالا هائلة ،
ويغنى فى ذلك عن تلك الآلة التى يسمونها « العفريتة » .

وكانت مرونة جسمه تتجاوز قوة بدنه وعضلاته وعظامه.
فبعض نزلاء الليمـــان الذين تحـــول سجنهم إلى مؤبـــد بكثرة
محاولات الهرب ، جعلوا من قدراتهم البدنية وبراعتهم فيهـــا

فنا وعلما . إنه علم العضلات . وكان السجناء يمارسون هذا الفن ويتبحرون فيه كل يوم ، وهم الذين يحسدون الذباب والعصافير على ما تنعم به من حرية. فتسلق عمود، والعثور على تكئات فى أجسام تبدو ملساء ، كانت لعبة جان فلجان المفضلة. ومتى راى جدارا له زاوية مستقيمة ملساء،استطاع بتوتر ظهره وقوة كعبيه وكوعيه ان يتسلقه ، إلى الطابق الثالث ، بل إنه كان فى بعض الأحيان يتسلقه إلى سطح الليمان .

وكان قليل الكلام ، ولا يضحك ابدا ، بل كان لا بد من انفعال خارق كى ينتزع منه ، مرة أو مرتين فى السنة ، ضحكة السجين الكالحة التى كأنها صدى ضحكة ابليس . وكل من يراه يخيل إليه انه ينظر دواما إلى شىء رهيب .

كان دائما مستغرقا فى خواطره المظلمة .

لقد كان يشعر شعورا غامضا من خلال إدراكاته المريضة وذكائه المكبل وطبيعته الناقصة ، بأن قدرا رهيبا يجثم فوق صدره . وكلما رفع ناظريه لم ير قبة السماء ، بل رأى برعب مشوب بالغضب عبئا يتراكم فوقه ويعلو طبقة فوق طبقة ، من ركام اشياء وقوانين وتحيزات وتحامل ، واشخاص واحداث ، لا يدرك مداها ، ويبهظه حملها ، ويردعه منظرها ، وما هو إلا بناء ذلك الهرم الذى ندعوه المدنية !

وفى هذا الركام الهائل كان يميزها هنا وها هناك وسط هذه الأخلاط الشائهة المائجة . عن كثب منه أحيانا ، وعلى

مبعدة منه احيانا أخرى ، هضابا لا يمكن الارتقاء إليها ، ويلمح فى جنباتها حارسا فى يده عصاه ، أو شرطيا يحمل سيفه ، .. وغير بعيد منها يلمح المطران بتاجه الذهبى المدبب ، على مستوى مرتفع ، تلمع فوقه اشعة الشمس . وفوق هذا المستوى الرفيع يرى أفقا يقف فيه الإمبراطور متوجا يبهر الأنظار ! ويخيل إليه ان هذا القبيل من الرؤى الفخمة لا يضىء ظلمات وجوده ، بل يجعله اشد قتامة ووحشة !

اجل . إن كل هذا الخليط الهائل من القوانين، والأهواء والتحيزات والأحداث والناس ، والأشياء ، يغدو ويروح من فوقه ، طبقا للحركة المعقدة الغامضة التى طبع الله عليها المدنية ! المدنية التى تسحقه وتمشى فوقه فى طمأنينة ووقار كلهما قسوة لا ترحم ، وعدم مبالاة به وبأمثاله من أصحاب النفوس التى سقطت فى الحضيض الأسفل من سوء الطالع والشقاء ، فهم بشر مساكين ضائعون فى اعماق المهاوى التى لم يعد أحد ينظر إلى اغوارها ، انهم منكودون من ضحايا القانون يشعرون بأنه يجثم دائما بكل ثقله الرهيب فوق رءوسهم ، ممثلا للمجتمع البشرى بفظاعة لا يتصورها من لا يرزح تحته ، ولكنها مروعة لمن فى القاع ...

فى هذا الوضع كان كل تفكير جان فلجان ، وماذا عسى ان تكون خواطره ؟

لو كانت لحبة القمح تحت حجر الطاحون افكار وخواطر ، فلا بد ان تكون بلا مراء صنو ما جال بخاطر جان فلجان .

فجميع الاشياء والوقائع الحافلة بتهاويل الأشباح ، وكل التهاويل الحافلة بالوقائع ، خلقت لديه عالما داخليا يكاد يكون المستحيل التعبير عنه .

وفى بعض الأحيان ، وسط عمله فى الليمان كان يتوقف ، ويأخذ فى التفكير ، ويثور عقله الذى غدا انضج من ذى قبل ، واشد بلبلة فى آن واحد . فكل ما حدث له كان يبدو لذهنه غير معقول . وكل ما كان يحدق به بدا له مستحيلا ، فكان يقول لنفسه :

— إنه حلم .

ويرمق الحارس الواقف على بعد خطوات معدودة منه ، فيبدو له هذا الحارس شبحا . وفجأة يضربه الحارس بعصاه !

لقد كانت الطبيعة المرئية لا تكاد توجد بالنسبة له . بل يكاد يكون ضربا من الصدق ان نقوله إنه لم يكن — لدى جان فلجان — وجود لا للشمس ، ولا للأيام الجميلة فى الصيف ، ولا سماء متألقة ، ولا فجر ناضر فى ابريل . ولست ادرى اى نهار من التنهدات كان يضىء غياهب نفسه فى العادة .

ولكى نلخص ، فى الختام ، ما يمكن تلخيصه وترجمته إلى نتائج إيجابية من بين كل ما اشرنا إليه ، سنكتفى بالقول أن جان فلجان مقلم الأشجار المسالم فى فافرول ، تحول إلى مذنب نزيل الليمان تسعة عشر عاما ، واشتغل بالتجديف الشاق فى سفن الدولة بطولون ، فصار قادرا بفضل التشكيل

الذى صبه عليه الليمان على ضربين من الأعمال السيئة ؛ اولهما الفعل السيىء السريع بلا تفكير ولا روية، وبكل الطيش والاندفاع ، وبوحى الغريزة وحدها ، كأنه ثأره من الشر الذى عاناه وكابده. وثانيهما الفعل السيىء الخطير الجدى عن روية مبعثها الأفكار الخاطئة التى يثيرها مثل هذا الشقاء ، وكانت تدبيراته تمر فى ثلاث مراحل متعاقبة لا تعرفها إلا جبلة معينة . وهذه المراحل هى التفكير والارادة والعناد . وكانت دوافعه هى الاستنكار المعتاد ، ومرارة النفس ، والاحساس العميق بالمظالم التى عاناها ، وهو رد فعل يوجهه ولو ضد الصالحين والأبرياء والعادلين ، إن كان لهم وجود . فنقطة البداية مثل نقطة الوصول فى جميع افكاره هى كراهية القانون البشرى ، تلك الكراهية التى ما لم يتوقف نموها بحادث من صنع العناية، تصبح فى وقت معين كراهية للمجتمع ، ثم كراهية للنوع البشرى ، ثم كراهية للخليقة ، وتترجم إلى رغبة غامضة متواصلة وحشية فى الأذى ؛ أذى أى إنسان ، أو أى كائن حى كيفما كان. لذا لم يكن بلا سبب أن جواز مرور جان فلجان وصفه بأنه « رجل بالغ الخطورة » .

وبمرور السنين جفت هذه النفس ، وتزايد جفافها ، ببطء ، ولكن بحسم . وصار جاف القلب ، جاف العين . فعندما بارح الليمان كانت له تسع عشرة سنة لم يذرف دمعة واحدة .

- ٨ -

الموجـــة والظـــل

رجل سقط فى البحر !

وما أهمية هذا ! السفينة لا تقف ، والريح تهب ، وهذه السفينة لها مسار لا بد لها من مواصلته . وهكذا تمضى فيه بلا توقف !

ويختفى الرجل ، ثم يعود للظهور . يغوص ويطفو على السطح ، ويصرخ ، ويمد ذراعيه ، ولا من سميع ولا مجيب . فالسفينة تواجه إعصارا ، وهى منهكة فى المناورة ، والبحارة والركاب لا يرون الرجل المغمور ، ورأسه التعس ليس سوى نقطة وسط أمواج اليم المصطخبة .

ويطلق صيحات اليأس فى الأعماق ، والسفينة تغـدو شبحا بشراعها على حافة الأفق ، ويمضى بعيدا عنه . ويرمقه فى فزع وهو يبتعد ، ويوغل فى البعد ، ويتناقص كلما ابتعد . لقد كان هناك منذ قليل ، وكان من بين البحارة ، وكان يروح ويغدو فوق الجسر مع الآخرين ، وكان له نصـــيبه مثلهم من التنفس والشمس . كان كائنا حيا . وماذا حدث الآن ! لقـد انزلق ، فسقط فى اليم ، وانتهى كل شىء .

إنه فى جوف اليم الضارى . ولم يعد تحت قدميه إلا الفرار والانهيار . والامواج المتلاطمة تحيط به من كل صوب ، تدفعها الريح الهادرة ، ودوامات الأعماق تحمله وتحيط برأســـه . وحشود من الأمواج تبصق عليه ، وفجوات غامضة تفغرفاها لتبتلعه . وفى كل مرة يغوص فيها يرى مهاوى حائلة بالظلمات ، ونباتات فظيعة مجهولة تمســك به وتقيد قدميه ، والأمواج تتقاذفه فيما بينها ، ويشرب المرارة ، ويستميت المحيط الجبان كى يغرقه ، ويتضاعف ذعره واحتضاره .

ولكنه مع هذا كله يناضل .

ويحـاول ان يحمى نفســـه ويدافع عنهـا ، وان يقف ويتماسك ، ويبذل جهده ، ويسبح . وتنفد قواه المنهارة امام تلك القوة التى لا تنفد .

اين السفينة إذن ؟ انها هناك ! لا تكاد ترى فى ظلمـات الأفق .

وتهب العواصف ، وتتكالب حوله حشود الزبد ، ويرفع عينيه ولا يرى إلا جهامة الأمواج . ويشهد فى ارتياع وحشية البحر ، ويسمع اصواتا غريبة كأنهـا قادمة من وراء الارض ومن حيث لا يدرى .

فى الأمواج طيور ، كما ان فى السماء ملائكة تعلو فوق الشقاء البشرى . ولكن ماذا يملكون له ؟

انها تطير وتحلق وتسبح وتغنى . اما هو فيشهق !

ويحس انه حبيس هذين اللامتناهيين : المحيط والسماء . احدهما قبر والآخر كفن !

ويهبط الليل . لقد مضت عليه ساعات وهو يسبح ، وقد وصلت قواه إلى نهايتها وخارت ، وقد انمحت تلك الســفينة التى كان فوقها أناس من البشر ، وصار وحيدا فى تلك الهاوية المظلمة ، ويحس من تحته وحوش المجهول ، وينادى :

لئن لم يعد هناك بشر ، فأين الله ؟

وينادى ، ثم ينادى . وما من مجيب .

لا احد على صفحة الأفق ، ولا احد فى السماء !

ويتوسل إلى الامتداد ، إلى الموج ، إلى الصخر . والكل اصم . ويتوسل إلى العاصـفة ، والعاصـفة التى لا ترحم لا يطيع إلا اللامتناهى !

ومن حوله العتمة ، والضباب ، والوحدة ، والاصطخاب العاصف الذى لا وعى له، وتلاطم المياه الشرسة . وفى حناياه الفزع والاعياء . ومن تحته السقوط . لا موطىء لقدمه . ويفكر فى مغامرات الجثة فى الظلمة غير المحدودة . ويشله البرد ، ويداه تنبسطان وتنقبضان ، فلا تطبقان إلا على العدم . رياح وامواج ودوامات ونجوم لا جدوى منها ! ما العمل ؟ ويترك اليائس نفسه للمقادير . ومن ينال منه الإعياء يختار الموت ، ويترك نفسه بلا عنان ، ويتهاوى فى اعماق اليم الكاشر .

يا مسيرة النوع البشرى ! يا ضيعة البشر والنفوس فى هذه المسيرة ! يا للمحيط الذى يسقط فيه من يقع تحت طائلة القانون ! لا مكان ها هنا لمغيث أو معين ! إنه الموت المعنوى !

اما البحر فهو ليل المجتمع الذى لا يرحم الذى تلقى فيه العقوبة بمنكوبيها . البحر هو البؤس المترامى . والنفس المهزومة فى هذه الهاوية قد تتحول إلى جثة . فمن ذا يبعثها من الموت ؟

- ٩ -

مظالم جديدة

عندما حانت ساعة الخروج من الليمان ، وسمع جان فلجان باذنيه تلك الكلمة الغريبة (*)

— انت حر !

لم يكد يصدق اذنيه ، وخال ما سمعه غير معقول واخترقه فجاة شعاع ضوء قوى ، شاع نور من انوار الأحياء الحقيقيين . بيد ان هذا الشعاع لم يلبث ان شحب ، فقد كان جان فلجان فى البداية مبهورا بفكرة الحرية ، فآمن بانه سيعيش حياة جديدة . ولكنه سرعان ما راى ما تعنيه حرية مصحوبة بجواز مرور اصفر .

ومن حول هذا الجواز تجمعت مرارات كثيرة . لقد كان يحسب ان رصيد اجره ، اثناء إقامته فى الليمان، لا بد ان يصل إلى مائة وواحد وسبعين فرنكا ، ومن العدل أن نقول إنه نسى ان يدخل فى حساباته الراحات الإجبارية فى ايام الآحاد والأعياد ، وقد تجمع هذا على مدى تسعة عشر عاما فانتقص منه نحو اربعة وعشرين فرنكا . ومهما يكن من شىء فقد انتقصت هذه المبالغ ايضا بخصومات مختلفة فصارت الحصيلة الفعلية مائة وتسعة فرنكات وخمسة عشر صلديا ، نقدوه إياها عند خروجه .

ولم يفهم شيئا من هذه الحسبة واعتقد انه مغبون ، بل لنقل إنهم سرقوه !

وفى غداة يوم إطلاق سراحه ، وصل فى جراس إلى باب مصنع لتقطير زهـــور البرتقال ، حيث راى رجـــالا يفرغون بالات .وعرض خدماته . ولما كان العمل كثيرا والوقت ضيق، قبلوا هذه‌الخدمات ، وشرع فى‌العمل ، وكان ذكيا قويا ماهرا ، وبذل خير ما فى وسعه ، وبدا رب العمل راضيا عنه . وفيما هو يعمل مر شرطى . ولمحـــه الشرطى وطلب إليـــه ان يريه اوراقه . فكان لا بد من إبراز جواز مروره الأصفر . وبعـــد ذلك استأنف جان فلجان عمله . وكان قبل ذلك بقليل قد سال احد العمال كم يتقاضى عن هذا العمل فى اليوم ، فقال له :

ــ ثلاثين صلديا .

وجاء المساء . ولما كان مضطرا للرحيل فى اليوم التالى صباحا ، فقد تقدم من رب العمل وهو صاحب معمل التقطير ورجاه ان يؤدى إليه اجـــره ، ولم ينطق رب العمل بكلمة بل نقده خمسة عشر صلديا ، فطالبه بالباقى ، فاجابه :

ــ هذا حسبك !

فالح فى الطلب ، عنـــدئذ نظـــر الرجل إلى ما بين عينى جان فلجان وقال له :

ــ يا خريج السجن !

وعندئذ شعر مرة اخرى بانه سرق .

إن المجتمع ، او الدولة ، سرقته بإنقاص مجموع اجره سرقة فاضحة . وها قد حل دور الفرد كى يسرقه على نطاق اقل ...

إن إطلاق السراح ليس هو الخلاص إذن . فالمرء يخرج من الليمان . ولكنه لا يتخلص من الادانة !

وهذا ما حدث له فى جراس . ونحن نعـــرف كيف كان استقباله فى (د) .

-١٠-

واســـتيقظ الرجـــل

وفيما كانت ساعة الكاتدرائية تدق الثانيـــة صباحا ، استيقظ جان فلجان .

وكان ما ايقظه هو وثارة الفراش الذى ينام فيه . فهو منذ عشرين سنة تقريبا لم ينم فى فراش ، ومع انه لم يكن تجرد من ثيابه ، إلا ان هذا الاحساس كان من الجدة بحيث نغص عليه نومه .

وكان قد نام اكثر من اربع ساعات ، محت تعبه ، وكان متعودا على عدم الركون طويلا إلى الراحة . وفتح عينيه ، ونظر برهة فى الظلمة من حوله ، ثم اغلقهما ليعاود النوم . وعندما تكون إحساسات متباينة قد كدرت النهار ، وتكون امور كثيرة قد شغلت البال ينام المرء ، ولكنه متى استيقظ لا يعاود النوم . فالنوم يأتى فى البداية بسهولة، ولكنه لا يعود بمثل هذه السهولة . وهذا ما حدث لجـــان فلجـــان . فلم يستطع ان يعاود النوم وشرع يفكر .

وكان فى لحظة من تلك اللحظات التى تضطرب فيهـــا الافكار التى تجول بالخاطر ، فراحت افكاره تروح وتغدو غامضة فى مخه . وطغت ذكرياته القديمة مختلطة بذكرياته الجديدة ، وتضخمت بصورة تتجاوز كل حد ، ثم اختفت فجأة كما ابتلعتها مياه موحلة . راودته افكار كثيرة ، ولكن فكرة

منها ظلت تلح عليه وتطرد ما عداها . كانت تتراءى له صورة الصحاف الفضية الست والملعقة الفضية الكبيرة التى كانت مدام مجلوار قد وضعتها على المائدة .

لقد استولت هذه الصحاف الست على لبه ايما استيلاء، انها هناك . على بعد خطوات منه . ففى اللحظة التى خطا فيها مجتازا الحجرة المجاورة ليدخل إلى الحجرة التى هو فيها الآن ، كانت الخادمة العجوز تضعها فى خزانة صغيرة عند رأس فراش الأسقف . لقد لاحظ تلك الخزانة جيدا . إنها على اليمين ، عند الدخول من قاعة المائدة . والصحاف من الفضة الخالصة المصبوبة صبا ، ومن الفضـــة القديمـــة ، وتساوى هى والملعقة الكبيرة مائتى فرنك على الأقـــل .. اى ضعف ما كسبه فى تسعة عشر عاما . وإن كان من الممكن ان يكون ما كسبه اكثر بكثير لو لم تسرقه الإدارة !

وظل فكره يتأرجح ساعة كاملة فى ذبذبات لا تخلو من صراع . ودقت الساعة الثالثة، ففتح عينيه، وجلس فى مكانه ومد ذراعه وتحسس كيسه الذى كان قد القاه فى ركن الخلوة، ثم انزل ساقيه ووضع قدميه على الأرض ، وإذا به يلقى نفسه جالسا فى فراشه .

وظل برهة شاردا فى ذلك الوضع الذى كان خليقا ان يفزع من يراه فى الظلام ، مستيقظا وحده فى بيت كل من فيه نيام وفجأة انحنى وخلع حذاءه ووضعه على الحصير بلطف قرب الفراش ، وعـــاد إلى جلســـته وشروده وهو جامـــد لا يتحرك .

ووسط هذا التأمل الموحش ، كانت الافكار التى ذكرناها تموج بلا توقف فى مخه : داخلة ، خارجـة ، ثم داخلة مـرة اخرى ، وتشغل تفكيره كله ، ثم فكر ايضا ، من غير ان يدرى لماذا ، بعناد آلى يمليه الشرود ، فى زميل له عرفه فى الليمان ، اسمه « بريفيه » ، ولم يكن يمسك سرواله إلا ناحية واحدة من حمالة مصنوعة من القطن ، وكانت صورة هذه الحمالة الغريبة الشكل تعاود تفكيره بلا انقطاع .

وظل فى هذه الجلسة ، وكان خليقا ان يظل فيها إلى ما لا نهاية . او إلى مطلع النهار ، لولا ان ساعة الكاتدرائية دقت دقة واحدة ، إعلانا للربع او للنصف . فكأنما قالت له هذه الدقة :

ـ هلم بنا !

فنهض واقفا ، وتردد لحظة ، واصغى . كل شىء كان صامتا فى ارجاء البيت ، وعنـدئذ مشى مبـاشرة وبخطوات صغيرة نحو النافذة ، فنظر من زجاجها . ولم يكن الليل حالك الظلمة ، بل كان القمر بدرا مكتملا تجرى من فوقه سـحب كبيرة تدفعها الرياح ، فيحدث تراوح بين الظلمة والضوء فى الخارج ، فثمة غياهب تعقبها اضواء . اما فى الداخل فيسود نوع من العتمة كالغسق ، وهو غسق كاف لكى يتلمس المرء خطواته فى تقطع بتأثير لحظات الاظلام فى الخـارج بسـبب السحب ، فما اشبه هذا بذلك الضوء الخافت الذى يتحدد من كوة فى مغارة ، وفى خارجها اناس يغدون ويروحون .

ولما وصل جان فلجان إلى الكهف فحصها ، فوجدها

خالية من القضبان ، وتطل على الحديقة . وهى غير مغلقة ـ على عادة هذا الإقليم ـ إلا بخابور صغير . ففتحها ، ولكن دخول هواء بارد شديد منها فجاة جعله يغلقها فى الحال . وتطلع إلى الحديقة بنظرة يقظة ، تدرس اكثر مما تنظر . وكانت الحديقة مسيجة بسور ابيض منخفض ، يسهل تسلقه. ومن وراء السور لاحظ رءوس اشجار متساوية الابعاد ، مما يدل على ان هذا السور يفصل الحديقة عن شارع او حارة تحف بجانبيها الأشجار .

وما إن القى هذه النظرة حتى بدرت منه حركة تدل على العزم، ومشى إلى خلوته ، وتناول كيسه ففتحه ، وفتش فيه واخرج منه شيئا وضعه على فراشه ، ووضع حذاءه فى احد جيوبه الكبيرة ، ثم اغلق كل شىء وحمل الكيس على كتفه ، ولبس قلنسوته وجذب طنفها على عينيه ، وتناول عصـاه نذهب ووضعه عند ركن النافذة ، ثم عاد إلى الفراش وامسك فى عزم بالشىء الذى كان قد وضعه هناك ، وهذا الشىء اشبه بقضيب قصير من الحديد ، واحد طرفيه مدبب كالحربة .

وكان من الصعب ان نميز فى الظلام لاى غرض تصلح هذه القطعة من الحديد . العلها عتلة ؟ العلها هراوة ؟

اما فى ضوء النهار فكان من الممكن ان ندرك انها ليست إلا شمعدانا يستخدم يومئذ فى المناجم . وكانوا يستخدمون نزلاء الليمان احيانا فى استخراج الملح الصخرى من التـلال العالية التى تحيط بطولون ، لذا لم يكن من النادر ان توجد تحت تصرفهم أدوات تعدين . وشمعدانات المعدنين من الحديد

المصبوب ، وينتهى طرفها السفلى بسن كانوا يغرسونه فى الصخر .

وتناول جان فلجان الشمعدان بيمناه ، وكتم تنفســه ، وخافت من خطواته ، واتجه إلى باب الحجرة المجاورة ، وهى حجرة الأسقف كما نعلم . ولما وصل إلى ذلك الباب وجــده مواربا ، لأن الأسقف لم يكن يغلقه ابدا .



وتناول جان فلجان الشمعدان بيمناه ، وكتم تنفســه ، وخافت من خطواته ، واتجه إلى باب الحجرة المجاورة ..

- ١١ -
وماذا صـــنع ؟

واصغى جان فلجان . لا صوت .

ودفع الباب .

دفعه بطرف اصبعه ، بخفة ، اشبه بخفة مختلسة قلقة مصدرها قطة تريد الدخول .

واستجاب الباب للضغط ، وتحرك حركة صامتة لا تكاد ترى وسعت الانفراج بعض الشيء .

وانتظر لحظة . ثم دفع الباب مرة ثانية ، بمزيد من الجراة .

وواصل الباب انقياده للضغط فى صمت . وصارت فرجته الآن من الاتساع بحيث تسمح بالدخول . ولكن كانت قرب الباب منضدة صغيرة تصنع مع البـــاب زاوية تعوق الدخول .

وفطن جان فلجان لهذه الصعوبة ، ولابد بأى شكل من توسيع الفتحة .

وجمع شتات نفسه ، ودفع الباب مرة ثالثة ، اقوى من المرتين السابقتين . وفى هذه المرة ســمع خــرير خافت من مفصلة سيئة التزييت دوى فى هذه العتمة كأنه صرخة جشاء متطاولة !

وارتجف جان فلجان ، لأن صوت هذه المفصلة رن فى أذنيه رنة رهيبة مجلجلة وكأنه ناقور يوم الحساب الأخير !

وفى تجسيمات هذه التهاويل فى اللحظة الأولى ، خيل إليه أن هذه المفصلة تحركت وصارت لها حياة رهيبة ، بل إنها نبحت كالكلب لتنبيه جميع الناس وإيقاظ النائمين .

ووقف جامدا فى مكانه يرتجف ، وهبط من وقوفه على أصابع قدميه واستقر على عقبيه ، وسمع عروقه تنبض فى صدغيه كمطارق الحدادين ، وخيل إليه ان انفاسه تخرج من صدره فى ضجيج كضجيج الريح التى تخرج من مغـارة . وتراءى له من المستحيل الا تكون ضجة هذه المفصلة الفظيعة لم تهز البيت كله كالزلزال، وأن الباب الذى دفعه أطلق صيحة النذير مدوية . وان الشيخ النـائم سـيهب من نومه ، وان المراتين العجوزين ستملآن الدنيا صراخا، فيأتى الناس للغوث من كل فج . وأنه قد مضى ربع الساعة ستكون المدينة كلهـا قد انبرت له ، ويكون الشرطة قاموا على قدم وساق . وظل برهة يظن نفسه قد ضاع .

وظل حيث هو ، جامدا متحجرا كأنه تمثال من الملح ، لا يجسر على الاتيان بحركة . ومرت بضع دقائق ، والباب مفتوح على سعته . فغامر بالنظر داخل الحجرة ، فاذا كل شيء كما هو لم يتحرك من مكانه . وأصاخ السمع . لا شيء يتحرك في البيت كله . فصوت المفصلة لم يوقظ احدا .

وهكذا مر هذا الخطر الأول ، ولكن كان هناك صراع مائج في داخله . ومع هذا لم يتراجع . بل إنه حينما ظن انه ضاع لم يتراجع . ولم يعد يفكر في شيء اللهم إلا الفراغ مما انتواه بسرعة . فخطا خطوة ودخل الحجرة .

وكانت هذه الحجرة غارقة في هدوء تام . ويميز المرء فيها هنا وهناك اشكالا غامضة . وفي ضوء النهار كانت ترى على المنضدة اوراق مهوشة ، ومجلدات كبيرة ، ومجلدات اخرى مكدسة فوق كرسي منخفض ، وعلى كرسي ذي ذراعين ملابس ملقاة . وهناك مركع للصلاة ، وهناك ايضا اركان مظلمة واماكن خالية ضاربة للبياض . وتقدم جان فلجان بحذر وهو يتحاشى الاصطدام بالأثاث . وسمع في صدر الحجرة تنفس الأسقف النائم يتصاعد هادئا منتظما .

ووقف فجاة . وكان قريبا من الفراش . فقد وصل إليه بأسرع مما كان يظن .

وفي بعض الأحيان تخلط الطبيعة تأثيراتها ومناظرها

بأفعالنا في ضرب من القصد الغامض الذكي ، كأنها تريد منا ان نتروى ونفكر ، فمنذ حوالي نصف الساعة كانت سحابة كبيرة تغطي السماء . وفي لحظة وقوف جان فلجان أمام الفراش ، تمزقت هذه السحابة ، كأنما حدث هذا عمدا ، وهبط شعاع من نور البدر من خلال النافذة فاضاء فجاة وجه الأسقف الشاحب . فاذا به نائم في هدوء وطمانينة . وهو مكتس تقريبا بسبب شدة البرد في ليالي اداني الألب ، بثوب من الصوف البني يغطي ذراعيه حتى المعصمين . وكان رأسه مستلقيا على الوسادة في وضع المستسلم للراحة ، وقد تدلت من الفراش يده المزدانة بخاتم الاسقفية ، والتي كثيرا ما تساقطت منها وانهمرت اعمال قدسية خيرة كثيرة ، ووجهه كله يشع منه تعبير غامض عن الرضا والرجاء والغبطة ، متهللا بما هو اكثر نورانية من الابتسام . وعلى جبينه ضياء لا نرى مصدره . فنفس الأبرار تتراءى لها في المنام سماوات لا يسبر لها غور .

وكانت هذه السماء منعكسة على الأسقف .

وهو في نفس الوقت شفافية إنسانية ، لأن هذه السماء كانت بداخله . هذه السماء كانت هي ضميره .

وفي اللحظة التي انضاف فيها نور القمر إلى تلك النورانية الداخلية ، بدا الأسقف النائم وكأنه صورة للمجد ، ظلت مغلفة بغلالة لطيفة من الضياء الخافت . كأن هذا

القمر فى صفحة السماء ، وهذه الطبيعة الفـــانية ، وهـــذه الحديقة التى لا صوت فيها ، وهذا البيت الساكن المطمئن ، وهذه الساعة ، بل اللحظة ، وهذا السكون ، قد اضـــفت جميعها المهابة والجلال على سكينة نوم ذلك الشيخ ، واحاطت بهالة من الجلالة الوادعة هذا الشعر الأبيض وهاتين العينين المقفلتين ، وهذا الشكل الذى كله رجاء وثقة ، وهذا الراس الأشيب ، وهذا النوم الذى يشبه نوم الأطفال .

كأنما كانت هناك قدسية إلهية فى ذلك الرجل الجليل عن غير وعى منه .

اما جان فلجان فكان فى الظل ، وشمعدانه الحديدى فى يده ، واقفا بلا حراك ، متوجسا من منظر هـــذا الشـــيخ النورانى . فهو لم ير فى حياته كلها قط شيئا كهذا ، فأفزعته كل هذه الثقة . فعالم المعنويات ليس فيه منظر اهـــول ولا اعظم من هذا : منظر ضمير مضطرب قلق ، على وشك الاقدام على فعلة خبيثة ، وأمامه رجل بار ينام نوم الصالحين.

فهذا النوم ، وهذه العزلة ، إلى جوار رجل مثله ، فيهما شىء رائع مهيب كان يحسه، إحساسا غامضا، ولكنه مهيمن .

وما من احد كان يستطيع ان يقول ماذا كان يـــدور فى حنايا صدره ، حتى ولا هو نفسه ! ولكى ندرك ما هو يجب ان نتخيل ابشع العنف فى حضرة أعذب العذوبة. ولذا لم يظهر

على وجهه شىء واضح مؤكد ، بل لا شىء سوى الدهشة الزائغة .

كان ينظر إلى الأسقف النائم ، ولا شىء عدا هـــذا . اما ماذا كانت أفكاره ؟ فهذا شىء من المستحيل حدسه . ولكن المقطوع به انه تأثر واضطرب . ولكن ماذا كانت طبيعة هذا الانفعال ؟

لم تفارق نظرته عين الشيخ المقفلة . وكل ما ارتسم على مسلكه هو التردد ، فكأنه حائر بين هاويتين : تلك التى يضيع فيها المرء ، وتلك التى فيها يكون خلاصه . فهو متردد بين تحطيم هذه الجمجمة أو تقبيل تلك اليد !

وبعد بضع لحظات ، ارتفعت ذراعه اليسرى إلى جبينه وخلع قلنسوته ، ثم هوت ذراعه بمثل هذا البطء . واستغرق جان فلجان فى تأمله وقلنسوته فى يده اليسرى ، وشمعدانه فى يمناه ، وشعره مشوش فوق راسه .

وظل الأسقف نائما فى هدوء تحت هذه النظرة المروعة .

وكشف شعاع القمـــر — فى شىء من الغموض — عن الصليب القائم فوق رف المدفأة ، وكأن المسيح فاتح ذراعيه لكليهما : للأسقف واللص ، يقدم البركة للأول ، والمغفـــرة للآخر .

وفجأة لبس جان فلجان قلنسوته وسار بسرعـــة على محاذاة الفراش من غير ان ينظر إلى الأسقف ، متجها مباشرة إلى الصوان الذى لمحه عند رأس الفراش . ورفع الشمعدان فى يمناه كأنما ليغتصب القفل ، ولكن المفتاح كان فيه ، ففتحه . وكان أول ما رآه السلة التى بها الأدوات الفضية ، فأخذها واجتاز الحجرة بخطى واســعة بدون حــذر ، ولا اهتمـام بالضجة ، ووصل إلى الباب ، ودخل المصلى ، ففتح النافذة ، وتناول عصاه ، وتسلقها واخرج رجليه ، ووضع الفضيات فى كيسه ، والقى بالسلة ، واجتاز الحديقـــة ، وقفــز فوق السور المنخفض كالنمر ، ولاذ بالفرار .

– ١٢ –

الأســـــقف يعمل

وفى الصباح التالى ، مع بزوغ الشمس . كان سيدنا يتمشى فى حديقته ، عندما جرت مدام مجلوار صوبه وهى فى غاية الاضطراب وصاحت :

ـ يا سيدنا ! يا سيدنا ! أتعرف عظمتك اين ســلة الفضيات ؟

فقال الأسقف :

ـ نعــم .

فقالت :

ـ ليكن اسم الله مباركا ! فقد كنت لا ادرى ماذا جرى لهـا .

وكان الأسقف قد التقط منذ قليل تلك السلة من حوض للزهور ، فقدمها إلى مدام مجلوار .

ـ هذه هى .

فقالت :

ـ ولكنها خاوية ! ليس بداخلها شىء ؟ واين الفضيات ؟

فقال الأسقف :

— آه ! اما يقلق بالك هو الفضيات ؟ لست أعرف اين هى !

— رباه ! انها سرقت ! سرقها الرجل الذى جاءنا مساء امس !

وفى غمضة عين ، جرت العجوز اليقظة ، مدام مجلوار ، إلى المصلى ودخلت الخلوة ثم عادت إلى الأسقف . وكان الأسقف منحنيا يتفحص وهو يتنهـد نابتة كانت السـلة قد سحقتها وهى تسقط فى حوض الزهور ، وانتصب على صوت صياح مدام مجلوار .

— سيدنا ! لقد رحل الرجل ، وسرقت الفضيات !

وفيما هى تقول ذلك وقع بصرها على موضع من السور به آثار تسلق ، وصاحت :

— انظر ! انه هرب من هذا المكان ، ووثب إلى حارة « كوشنيليه » ! للفظاعة ! لقد سرق فضياتنا !

وظل الأسقف صامتا لحظة ، ثم رفع بصره فى جد وقال لمدام مجلوار بعذوبة :

— وهل كانت هذه الفضيات لنا ؟

ووقفت مدام مجلوار مذهولة . وساد صمت آخـر ثم استطرد الأسقف :

— يا مدام مجلوار ! لقد اخطأت بالاحتفاظ بهذه الفضيات منذ مدة طويلة . انها من حق الفقراء . ومن كان هذا الرجل ؟ إنه رجل فقير قطعا !

— فليرحمنا المسيح ! انا لست حزينة لأجلى ولا لاجل الآنسة . فالأمر لدينا سـيان . بل من اجل سـيدنا . ففى أى شىء عساه يأكل الآن ؟

فنظر إليها الأسقف فى دهشة وقال :

— آه ! الا توجد صحاف من القصدير ؟

فهزت مدام مجلوار كتفيها وقالت :

— للقصدير رائحة .

— لنأكل فى صحاف من الحديد إذن !

فلوت مدام مجلوار وجهها باشمئزاز وقالت :

— للحديد طعم .

فقال الأسقف :

— فى صحاف من الخشب إذن !

وبعد لحظات ، كان يفطر على نفس تلك المائدة التى جلس إليها جان فلجان بالأمس مساء . وفيما كان سيدنا يتناول إفطاره قال بمرح لأخته التى لم تتكلم ، ولمدام مجلوار التى كانت تدمدم بصوت كظيم إنه لا حاجة إلى ملعقة أو شوكة ، ولو من الخشب ، لغمس قطعة من الخبز فى فنجان من اللبن . وقالت مدام مجلوار لنفسها وهى تغدو وتروح للخدمة :

— هذه عاقبة من يستقبل رجلا مجهولا على هذه الصورة ! ويسكنه بقربه ! وانه لمن حسن الطالع انه اكتفى بالسرقة ! يا إلهى ! إنى لأرتعد عندما أفكر فى هذا !

وفيما كان الأخ والأخت بسبيل القيام من المائدة ، طرق الباب . فقال الأسقف :

— ادخل !

وانفتح الباب ، وبدت على عتبته مجموعة غريبة عنيفة المظهر . كان ثلاثة رجال يمسكون بخناق رابع . وكان الثلاثة من الشرطة ، اما الرابع فكان جان فلجان ... وكان ضابط شرطة بقرب الباب ، ويبدو انه قائد الثلة ، فدخل واقترب من الأسقف وأدى له التحية العسكرية ، وقال :

— يا سيدنا !

وما إن سمع جان فلجان المكتئب المرتبك هذه الكلمة حتى رفع رأسه مأخوذا وغمغم :

— سيدنا ! انه ليس القس إذن !

فصاح به شرطى :

— اخرس ! هذا سيدنا الاسقف !

ولكن سيدنا اقترب منه بأسرع ما تسعفه سنه المتقدمة وصاح بجان فلجان :

— آه ! اهذا انت ! انا مسرور برؤياك ! ولكنى كنت قد أعطيتك الشمعدانين ايضا ، فهما من الفضة مثل بقية أدوات المائدة ويمكنك بيعهما بمائتى فرنك . فلماذا لم تأخذهما مع بقية اشيائك ؟

وفتح جان فلجان عينيه على سعتهما ونظر إلى الأسقف الموقر بتعبير تعجز كل السنة البشر عن الإفصاح عنه . وقال ضابط الشرطة :

— فما قاله هذا الرجل حق إذن ! لقد قابلناه ، وكانت تبدو عليه النية فى الرحيل ، فقبضنا عليه لنستجلى أمره ، فاذا معه هذه الفضيات .

وقاطعه الأسقف باسما :

— وقال لكم ان رجلا مسنا طيبا من الكهنة أعطاه إياها بعد ان قضى عنده ليلته ؟ فهمت ! فجئتم به إلى هنا . فى الامر سوء تفاهم .. ولبس !

فقال الضابط :

— فى وسعنا اذن ان نتركه ينصرف ؟

فقال الأسقف :

— بلا شك !

فخلى الشرطة سبيل جان فلجان الذى تراجع وقال بصوت مضعضع كمن يتكلم فى حلم :

— اصحيح انهم يطلقون سراحى ؟

فقال شرطى :

— نعم . الم تفهم ؟

وقال الأسقف :

— يا صديقى . وقبل أن ترحل هاك شمعدانان . خذهما معك !

واتجه إلى المدفاة فاخذ شمعدانى الفضة وحملهما إلى جان فلجان . وكانت المرأتان تنظران ولا تتكلمان . بل ومن غير ان تبدر منهما حركة او نظرة يمكن ان تزعج الأسقف .

وجعلت أوصال جان فلجان كلها ترتجف وتناول الشمعدانين بحركة آلية وهو ذاهل . وقال الأسقف :

— والآن امض بسلام ! وبهذه المناسبة ، إن اردت العودة فلا داعى للدخول من الحديقة يا صديقى . ففى وسعك دائما الدخول والخروج من باب الشارع . فهو لا يغلق إلا بالأكرة فى الليل والنهار !

ثم التفت إلى الشرطة وقال لهم :

— وانتم ايها السادة ، فى وسعكم الانصراف !

فابتعد الشرطيون . وبدا على جان فلجان كما لو كان سيغمى عليه ، فاقترب منه الأسقف وقال بصوت خفيض :

— لا تنس . لا تنس ابدا انك وعدتنى باستخدام هذه الفضة فى الحياة الشريفة بأمانة !

ووقف جان فلجان مبهوتا ، فهو لا يذكر أنه وعد بشىء ، وكان الأسقف قد ضغط على هذه الكلمات وهو ينطقها . واستطرد فى جد ومهابة قائلا :

— جان فلجان يا أخى ! انك لم تعد منتميا للشر ، بل للخير . فما اشتريته منك هو روحك . كى أخلصها من الأفكار السوداء ومن روح الهلاك ، واعطيها للرب !

- ١٣ -

جــرفيه الصـــــغير

وخرج جان فلجان من المدينة كالهارب . واخذ يمشى بكل سرعة فى الحقول، سالكا الطرق والدروب التى تصادفه، من غير أن يفطن إلى انه يرتد فى كل مرة من حيث اتى . وظل يطوف على هذا النحو طيلة الصباح ، من غير أن يأكل ، ومن غير أن يحس بالجوع . فهو نهب حشـــد من الاحســـاسات الجديدة : شعر بنوع من الغضب ، من غير ان يدرى ضـــد من غضبه هذا . ولم يستطع أن يقول هل ما احسه كان تأثرا ام كان مهانة . وخامره فى لحظات حنان غريب ظل يقـــاومه بالصلابة التى تكونت لديه فى عشرين عاما . وارهقه هـــذا الحال . وشاهد فى قلق كيف اهتز فيه ذلك الهدوء المخيف الذى رسبه فيه الاحساس بالظلم الذى فرض عليه الشقاء . وتساءل ماذا عسى ان يحل محل هذا . وفى بعض الأحيان كان يتمنى لو ظل فعلا فى السجن مع الشرطة ، والا تكون اموره قد جـــرت على هـــذا النحـــو ، لان ذلك كان ادعى لتقليل اضطرابه .

ومع أن الموسم كان متقدما جدا ، إلا انه كانت هنـــا

وهناك بين الأسيجة والأعشاب بعض أزاهير متخلفة كانت رائحتها العطرة وهو مار بها تذكره بطفولته . وكانت هـــذه الذكريات لا تحتمل قسوتها ، فقد مضت عليها مدة طويلة لم تعاوده فيها . وظلت أفكار كثيرة لا يمكنه تبينها تموج فى خاطره طيلة ذلك النهار .

ولما جنحت الشمس للغروب ، وطال على الأرض ظل اصغر حصاة ، كان جان فلجان جالسا خلف دغل فى سهل مترام مقفر تماما . وليس أمامه فى الأفق إلا جبال الألب . ولا اثر ولو لبرج ناقوس قرية صغيرة بعيدة . ولعل جان فلجان كان على مسافة ثلاثة فراسخ من مدينة (د) . ودرب يشق السهل يمر على بعد خطوات من الدغل . وفيما هو غارق فى تأملاته التى لم تكن لتقلل من هول منظر اسماله وسحنته فى عين كل من يقع بصره عليه ، سمع صوتا مرحا ، فالتفت وراى على ذلك الدرب غلاما من أبناء الجبال فى سافوا ، فى نحـــو العاشرة من عمره ، يغنى ، وطنبوره مشدود إلى جنبه . وهو صبى من أولئك الأطفـــال اللطـــاف المرحين الذين يطوفون الأقاليم ، وثقوب سراويلهم الرثة تطل منها ركبهم . وبينما هو سائر يغنى ، كان يتوقف أحيانا ويلهو بقذف قطع نقود صغيرة كانت فى يده وتلقفها . ولعلها كانت ثروته كلها . ومن بين هذه النقود قطعة ذات اربعين صلديا .

ووقف الطفل إلى جانب الأجمة من غير ان يرى جان فلجان ، وقذف حفنة الصلديات التى كان حتى تلك اللحظة قد افلح فى تلقفها كاملة على ظهر كفه الصغيرة . إلا ان قطعة الأربعين صلديا افلتت منه هذه المرة وتدحرجت نحو الأجمة إلى ان بلغت موضع جان فلجان . ووضع جان فلجان قدمه فوقها ..

ولكن الطفل كان قد تعقب قطعة النقود ببصره ورآها. ولم يدهش ، بل سار نحو الرجل الغريب مباشرة .

وكان ذلك المكان مقفرا تماما وموحشا ، فلا احد على امتداد البصر على الدرب أو فى السهل . ولا يسمع إلا صوت سرب عصافير تعبر السماء على ارتفاع شاهق . وأدار الطفل ظهره للشمس التى القت أشعتها الذهبية فى شعره الأصفر ، واضفت توهجا دمويا على سحنة جان فلجان الوحشية . وقال الصغير بكل ثقة الطفولة وبراءتها وجهلها :

ــ سيدى ! قطعة نقودى ؟

فقال له جان فلجان :

ــ ما اسمك ؟

ــ جرفيه الصغير يا سيدى .

ــ انصرف ! ابتعد !

إلا أن قطعة الأربعين صلديا أفلتت منه هذه المرة وتدحرجت نحـو الأجمـة إلى أن بلغت موضـع جان فلجان . ووضع جان فلجان قدمه فوقها ..

فعاد الطفل يقول :

— سيدى ! اعد إلى نقودى .

فطأطأ جان فلجان رأسه ولم يجبه ، وعاد الطفل يقول:

— قطعتى يا سيدى !

وظلت عين جان فلجان مثبتة فى الأرض ، وصاح الطفل:

— قطعتى ! قطعتى البيضاء ! فضتى !

وبدا كأن جان فلجان لم يسمع ، وامسك الطفل بخناقه وهزه ، وبذل فى نفس الوقت كل جهده لكى يزحزح الحذاء الغليظ ذا المسامير الموضوع فوق كنزه ، وهو يصيح :

— اريد قطعتى ! قطعتى ذات الاربعين صلديا !

وبكى الطفل . فرفع جان فلجان رأسه وهو لم يزل جالسا ، وفى عينيه اضطراب ، ورمق الطفل فى دهشة ، ثم مد يده إلى عصاه وصاح بصوت رهيب :

— من هذا ؟

فاجابه الطفل :

— انا يا سيدى ! جرفيه الصغير ! انا ! انا ! انا ! رد إلى الاربعين صلديا من فضلك ! ارفع قدمك يا سيدى من فضلك!

ثم استشاط غضبه رغم ضآلته وقال كالمتوعد :

— ارفع قدمك ! هلا رفعت قدمك ؟ وبعد !

فاجابه جان فلجان وهو ينهض واقفا فجأة وقدمه ما تزال فوق قطعة النقود ، قائلا :

— أهذا انت لم تزل هنا ؟ انج بنفسك !

ونظر إليه الطفل مذعورا ، ثم اخذ ينتفض من قمة الرأس إلى اخمص القدم ، وبعد لحظات ذهول فر هاربا بكل قوته من غير أن يجسر على النظر خلفه او إطلاق صرخة . ولكنه فقد القدرة على مواصلة الجرى بعد خمسين خطوة فتوقف ، وسمعه جان فلجان — وهو شارد الذهن — ينتحب. وبعد بضع لحظات كان الطفل قد اختفى . وكانت الشمس قد غربت ، وانتشرت الظلال حول جان فلجان . ولم يكن قد اكل شيئا طول النهار . ولعله كان محموما .

وكان قد ظل واقفا ، ولم يغير وضعه منذ فرار الطفل ، وكان تنفسه يرفع صدره فى فترات طويلة غير متساوية . ونظره مثبت على مسافة عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة أمامه ، وبدا كمن يتفحص ببصره كسرة من الخزف الأزرق ساقطة وسط العشب . وفجأة انتفض ، وقد شعر ببرودة المساء .

وثبت قلنسوته فــوق جبينه ، واخــذ يســوى ويزر سترته ، وخطا خطوة وانحنى ليتناول من فوق الأرض عصاه. وفى هذه اللحظة لمح قطعة الأربعين صلديا التى كانت قدمه قد غرستها إلى منتصفها فى الأرض ، وهى تلمع بين الحصى ، فكانما اصابته صدمة كهربية . وقال لنفسه من بين اسنانه :

ـــ ما هذا ؟

وتراجع ثلاث خطوات ثم وقف ، من غير أن يتمكن من نزع بصره من هذه النقطة التى كانت قدمه تشغلها منذ لحظة ، كانما هذا الشيء الذى يلمع هناك عين مفتوحة مثبتة عليه .

وبعد بضع دقائق اندفع نحو القطعة الفضية كمن وقع تحت سيطرة قوة قاهرة ، وأمسك بها ، وانتصب واقفا ، وراح يمد بصره فى السهل المنبسط أمامه ، وهو يجيل عينيه فى كل مواضع الأفق ، وهو واقف يرتجف كحيوان متوحش مذعور يلتمس لنفسه ملاذا . فلم ير شيئا . فالليــل كان يخيم ، والسهل تسوده البرودة والغموض ، والضباب البنفسجى يتصاعد فى الغسق .

قال : « آه ! » ثم مضى يمشى بسرعة فى اتجاه معين ، من الناحية التى كان الطفل قد اختفى فيها . وبعد نحو ثلاثين خطوة وقف ، ونظر فلم ير شيئا . وعندئذ صاح بكل قوته :

ـــ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

وصمت وانتظر ، فلم يسمع جوابا .

كان الريف مقفرا كالحا قابضا ، يكتنفه الامتـــداد . فلا شيء حوله سوى ظل يضل فيه بصره وسكون مطبق يضيع فيه صوته . وهبت ريح ثلجية اضفت على الأشياء من حوله حياة فاجعة . والشجيرات تهز اذرعها الصغيرة الهزيلة فى غضب لا يصدق ، فكأنما تتوعد احدا وتتعقبه .

وواصل السير ، ثم انشأ يجرى ، وبين الفينة والفينة كان يقف ويصرخ فى تلك العزلة بصوت مخيف مكروب معا :

ـــ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

ويقينا لو كان الطفل سمعه لخاف وتحاشى إظهار نفسه. ولكن الطفل كان ولا شك قد ابتعد كثيرا .

والتقى بكاهن راكب حصانا ، فاتجه إليه وساله :

ـــ سيدى القس . أرأيت طفلا يمر بك ؟

فقال الكاهن :

ـــ لا .

ـــ طفل اسمه جرفيه الصغير ؟

ـــ لم ار احدا .

فأخرج قطعتين من ذات الخمســـة فرنكات واعطاهما القس وهو يقول :

— إليك هذه النقود لفقرائك يا سيدى القس . انه يا سيدى القس فى نحو العاشرة من عمره ومعه طنبور . كان ماشيا . احد هؤلاء الجبليين الصغار من اهل الساڤوا .

— انا لم اره .

— جرفيه الصغير ؟ اليس من اهل هذه القرى هنا ؟ افى مقدورك أن تدلنى عليه ؟

— إن كان كما تصفه يا صديقى فهو طفل غريب . وامثاله يمرون بالاقليم ولا يعرفهم احد .

فتناول جان فلجان من كيسه قطعتين اخريين من ذات الخمسة فرنكات اعطاهما القس وهو يقول :

— وهذا ايضا لفقرائك !

ثم اضاف فى ذهول :

— سيدى القس ! اجعلهم يقبضون على . فانا لص !

فهز القس جواده بقدميه ولاذ بالفرار مرتاعا . وشرع جان فلجان فى الركض فى نفس اتجاهه السابق . واستمر فى هذا مسافة طويلة ، وهو ينظر وينادى ويصرخ ، ولكنه لم يقابل بعد ذلك احدا . ومرتين او ثلاث مرات جرى فى الوادى نحو شىء بدا له انه شخص راقد او جالس القرفصاء ، فاذا بها

عوسج أو صخور ناتئة . واخيرا توقف عند مكان تتقاطع فيه ثلاثة دروب . وكان القمر قد طلع ، فاجال بصره بعيدا ونادى مرة اخيرة :

— جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

فضاع صوته وسط الضباب ، من غير ان يثير صدى . وغمغم ثانية بصوت مضعضع ضعيف :

— جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

فكان هذا آخر جهده ، وكانما تجسم وقر ضميره عبئا ناءت به قدماه ، فتهالك خائر القوى فوق صخرة كبيرة ، وقبضتاه فى شعره ، ووجهه فى ركبتيه وصاح :

— أنا شقى ! انا منكود ! انا بائس !

وعندئذ انفطر قلبه ، وشرع يبكى . فكانت هذه اول مرة يبكى فيها منذ تسعة عشر عاما .

وكان جان فلجان عند خروجه من بيت الأسقف عاجزا عن إدراك ما يدور فى أعماقه . وكان يقاوم تاثير الانجيل الملائكى واقوال الشيخ العذبة الرقيقة ، حين قال له :

— لقد وعدتنى أن تكون إنسانا شريفا امينا ! فانا قد اشتريت روحك ، واستلها من روح الشر واقدمها إلى الرب !

وكانت هذه العبارة تعاود خاطره بلا انقطاع . فكان يقابل هذه السماحة السماوية بالكبرياء ، التى هى فينا بمثابة قلعة الشر . لأنه أحس أن مغفرة ذلك القس كانت أكبر هجمة اهتز لها كيانه . وأن صلابته ستكون نهائية لو انه قاوم هذه الشفقة . وانه إذا اذعن لها فعليه ان ينزل عن كل كراهية ملأت بها نفسه افعال الآخرين طوال السنين . ولكن هــذه الكراهية كانت تطيب له . ولكنه هذه المرة إما أن ينهزم أو يهزم ، ولن الصراع الرهيب ، صراع الجبابرة ، الحاسم قد نشب بين ضراوته وشره وبين طيبة هذا الرجل .

وفى هــذه الخــواطر المحتدمــة مضى جان فلجــان كالسكران .. لكن أكان يبدو له وهو يهيم على هذا النحو ، زائغ البصر ، ما يمكن ان تتمخض عنه الأحداث التى مر بهــا فى مدينة (د) ؟ أكان يعقل ذلك الطنين الغامض الذى يدور فى نفسه فى لحظات معينة من حياته ؟ إن صوتا كان يهمس فى اذنه انه مر بالساعة الحاسمة من مصيره ، وانه لا مفر له إما ان يغدو افضل الناس أو شرهم ، فلا وسط هناك . فاما ان يرقى إلى ما فوق مستوى الأسقف أو يهبط إلى درك دون حضيض نزلاء الليمان. وأن عليه إذا اراد أن يكون صالحا ان يغدو ملكا كريما . اما إذا اراد ان يظل شريرا فعليه ان ينقلب وحشا كاسرا .

وها هنا ايضا ينبغى ان نتســاءل تلك الأســئلة التى سألناها من قبل : أكان فى فــكره ظل من كل تلك الأســئلة الحاسمة ؟ أكان يدركها ؟ ان الشقاء كما قلنا مدرسة الذكاء . ولكن من المشكوك فيه ان جان فلجان كان يميز شيئا من هذا كله ، فهو لم يكن يدركها بوضوح ، وكل ما هناك ان تلاطمها فى نفســه كان يشــيع فيها الاضــطراب الذى لا سبيل إلى الاحاطة به أو وصفه . فعند خروجه من ذلك المكان الشديد الظلمة الذى يدعونه الليمان آذاه الأسقف بما صبه فجاة على باصرتيه من وهج الضوء الساطع ، وهو الذى لم تتعود عيناه عشرين سنة أو زهاءها إلا الظلمات الحالكة . فكأنما هو بومة لا ترى إلا فى الديجور الدامس طلعت عليها الشــمس فجاة ، فانبهر بصره وزاغ واعمته انوار الفضيلة !

ولكنه ايقن بشىء واحد ، وهو انه لم يعد ذلك الإنسان الذى كان من قبل . وان كل شىء فيه قد تغير ، وانه لم يعــد فى استطاعته ان يفرض ان الأسقف لم يكلمه ، ولم يلمسه .

وكان فى ذلك الوضع النفسى عندما مر به جرفيه الصغير وسرق منه الأربعين صلديا . لماذا ؟ انه ما كان يقينا ليستطيع تفسير هذه الفعلة . اكانت جهــدا اخيرا من جــانب افكاره الشريرة التى خرج بها من الليمان ، للدفاع عن نفسها ضــد صوت الفضيلة ؟ لنقل بصراحة انه لم يكن هو نفســه الإنسان

الذى صنع هذا ، بل الحيوان الذى بداخله ، مدفوعا بعاداته
الغرزية ، فوضع قدمه بغباء فوق هذه القطعة الفضية ، فى
حين كان ذكاؤه يتخبط فى حبائل الغريزة ولا يستطيع فكاكا
لبرهة طويلة . فلم تحرر ذكاؤه وتبين ما صنعه الحيوان ارتاع
جان فلجان واطلق صيحة ذعر . وتلك ظاهرة غريبة لم تكن
ممكنة إلا فى مثل حالته هذه ، فهو بسرقة هذه النقود من ذلك
الطفل اقترف فعلة لم يعد كفؤا لها الآن !

ومهما يكن من شىء ، فان هذه الفعلة السيئة الأخيرة
كان لها عليه تأثير حاسم . فقد مرقت وسط فوضى مشاعره
المتناقضة وبددتها ، بحيث فصلت بين الظلمات والنـور ،
وفعلت فى نفسه كفعـل بعض العـوامل الكيميائية فى بعض
الأخلاط ، فتنفصل بعضها عن بعض ، بتنشيط أحد عناصرها
وإبطال سائر العناصر المضادة له .

وفى بادىء الأمر ، وقبل أن يتبين ما فى نفسه ويفكر فيه ،
حاول كالمخبول الشارد ان يعثر على الطفل ليرد إليه نقوده ،
ولما ايقن ان ذلك مستحيل ولا جدوى منه ، وقف يائسا . وفى
اللحظة التى صاح فيها :

ـ انا شقى ! انا بائس !

ادرك اى إنسان هو ، وصار منفصلا عن ذاتـه حتى
اوشك ان يظن انه شبح ، وان امامه الآن بلحمـه ودمـه ،

وعصاه فى يده ، وسترته على حقويه ، وعلى ظهره كيسه
المكتظ بالمسروقات ، ووجهه عابس كاشر ، ورأسـه يموج
بالنيات الفظيعة ، يقف المدعو جان فلجان .

إن فرط الشقاء ـ كما قلنا ـ جعـل منه صـاحب
استبصار على نحو ما . وما خيل إليه كان رؤيا . فراى فعلا
جان فلجان امامه بوجهه المروع . وكان على وشك ان يسأل
من عساه ان يكون هذا الرجل ، وداخلته منه روعة الفزع .

كان مخه فى حالة ثوران عنيف مع جمود تام فى الوقت
نفسه ، وتلك لحظة تكثر فيها الأخيلة العميقة التى تستوعب
الواقع لشدة عمقها . فلا يرى المرء عندئذ الأشياء التى
امامه ، بل يرى ما فى سريرته وكأنه صار خارجها باديا لعيانه.

وهكذا راح يتأمل نفسه وجها لوجه . وفى الوقت نفسه
تراءى له ضياء ساطع ظنه فى بادىء الأمر شعلة . ولما انعم
النظر فى هذا الضوء الذى بدا لوعيه وضميره ، تبين ان له
صورة بشرية . وان هذه الشعلة هى الأسقف .

وراح ضميره يتمعن فى هذين الرجلين الواقفين امامه :
الأسقف وجان فلجان . وما كان أحوجه إلى الأول كى يذيب
الثانى ويبدده . ومع استغراقه فى هذه الرؤى اخذت صورة
الأسقف تكبر وتتضخم حتى ملأت عليه آفاق نظره ، وتضاءل
جان فلجـان حتى امحى ! وحلت لحظـة لم يعد فيهـا جان

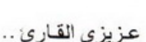
فلجان إلا ظلا حائلا ، وفجأة تلاشى هـــذا الظل وبقى الأسقف وحده . وملأ كل نفس هذا البائس بنور رائع .

وظل جان فلجان يبكى وقتا طويلا. بكى بدموع سخينة ، بنحيب ونشيج ، فى ضعف دونه ضعف امرأة ، وبفزع دونه فزع طفل .

وكلما بكى زاد الضياء فى مخه ، وهو ضياء خارق بديع ورهيب فى آن واحد . وعادت إليه صور حياته الماضية كلها ، وزلته الأولى ، وكفارته الطويلة ، وتوحش مظهره ، وتصلب سريرته ، وإطلاق سراحه الذى صاحبته بهجة الشروع فى الانتقام ، وما حدث له عنـــد الأسقف ، وفعلته الأخيرة وهى سرقة الأربعين صلديا من طفل ، وهى جريمة تجاوزته نكرا ونذالة كل حد لأنها جاءت بعد صفح الأسقف عنه . كل هذا تراى له بوضوح لم يتسن له من قبل ، فراى حياته فظيعة ، وراى روحه مخيفة شائهة . ومع هذا كان هناك ضياء صاف جميل يشرق على هـــذه الحياة وهـــذه الروح ، فكأنما يرى الشيطان فى أضواء الفردوس !

كم ساعة ظل يبكى هكذا ؟ وماذا صنع بعـــد أن بكى ؟ اين ذهب ؟ هـــذا ما لم يعرفه احـــد قط . ولكن تأكد فقط أن سائق العربة التى كانت فى ذلك الحين تقوم بالخدمة على خط جرينوبل وكانت تصل إلى (د) . حوالى الساعة الثالثة صباحا ، أبصر وهو يجتاز شارع الأسقفية رجلا راكعا على الطوار فى وضع الصلاة ، فى الظل . أمام باب سيدنا بينفينى .





عزيزى القارئ ..

يسعدنى أن أقدم لك اليوم بين دفتى هذا الكتاب ، الجزء الأول من ملحمة « ڤيكتور هيجو » الخالدة : « البؤساء » ، التى استغرقت منه كتابتها ١٤ عاما كاملة ، حتى نشرت لأول مرة فى عام ١٨٦٢ ، والتى تدور أحداثها فى الحقبة بين عامى ١٨١٥ ـ ١٨٣٥ ، فى وطن مؤلفها (فرنسا) . والرواية ـ التى تدور فى قالب رومانسى ، حافل بالأحداث المثيرة ـ هى دراسة اجتماعية للفقر ، وللحياة فى الأحياء المتواضعة المزدحمة ، وقد اشتهر أبطالها فى العالم كله بأسمائهم التى صارت مرادفة للفاقة والجريمة والجوع .. وهى أسماء بطلها الرئيسى « چان ڤالچان » ، وبطلتها « فانتين » ، وابنتها « كوزيت » .. ورجل البوليس الذى يطارد البطل طوال الرواية ، المدعو « چاڤير » .. والذى من فرط حرصه على تأدية واجبه ، وصيانة العدالة ، يتهم بقسوة القلب !

ونظرا للشهرة العالمية لهذه الرواية فقد اقتبست للسينما عشرات المرات : ففى فرنسا أخرجت فى أعوام ١٩٠٩ ، و١٩١٣ ، و١٩٢٣ ، و ١٩٣٤ (حيث مثلها « هارى بور ») ، ثم فى ١٩٥٦ (مثلها جان جابان) ، وفى هوليوود مثلها فى عام ١٩٢٩ « والتر هستون » وفى ١٩٣٥ « فردريك مارشى » و « تشارلس لوتون » . وفى ١٩٥٢ « سيلڤيا سيدنى » . وفى إيطاليا ١٩٤٦ ، وفى انجلترا ١٩٧٨ . وفى مصر مثلها « فريد شوقى » .. الخ .. الخ .

حلمى مراد



١٠٠ قرش